الكتاب السابع عشر

الفصل الأول

1- بما أنني أدخلت في وصفي للعربية الخلجان التي تحيط بها لتجعل منها شبه جزيرة، خاصة الخليج الفارسي والخليج العربي، وتطرّقت في أثناء حديثي عن هذا الأخير إلى أجزاء من مصر وإثيوبيا، وتحديداً منطقة التروغلوديتي والقبائل التي تقطن بعد ذلك وصولاً إلى آخر بلاد القرفة، فإنه ينبغي عليّ أن أتحدّث الآن عن باقي الأراضي المجاورة لهذه القبائل؛ وأنا أقصد هنا إلى الأماكن الواقعة حول النيل. وسأعطي بعد هذا وصفاً موجزاً لليبيا التي تشكّل القسم الأخير في وصفي للأرض. وهنا ينبغي أن أعرض أوّلاً أخبار إيراتوسفين.

2- فوفق إيراتوسفين أنّ النيل يقع على بعد 900 أو 1000 مرحلة إلى الغرب من الخليج العربي، وهو يشبه من حيث الشكل مقلوب الحرف N[1]. ويواصل إيراتوسفين قائلاً: لأنه يجري على امتداد يقارب 2700 مرحلة إلى الشمال من ميرويه، ثمّ ينعطف نحو الخلف ليجري جنوباً نحو المطلع الشتوي للشمس على امتداد 3700 مرحلة؛ وبعد ذلك يكاد أن يبلغ المناطق القريبة من ميرويه، ثمّ يتوغّل بعيداً في ليبيا بعد منعطفه الثاني، ليجري مسافة 3500 مرحلة نحو الشمال حتّى الشلال الأكبر، مع ميل بسيط نحو الشرق؛ وبعدها 1200 مرحلة حتّى الشلال الأصغر عند سيينا، وأخيراً 5300 مرحلة أخرى ليبلغ البحر. وثمّة نهران ينبعان من بحيرات ما في الشرق ويحيطان بجزيرة ميرويه الكبيرة، ثمّ يصبّان في البحر. ويدعى أحدهما، الذي يجري على الجانب الشرقي، أستابورا، ويدعى الثاني أستاب، مع أن بعضهم يدعوه أستاسوبا، ويقولون إن أستاب نهر آخر ينبع من عدد من البحيرات الجنوبية؛ ويشكل هذا النهر الأخير ما يقارب كلّ القسم المستقيم من نهر النيل، ويمتلئ من مياه الأمطار الصيفية. ويقول إيرتوسفين إنه

إلى الأعلى من ملتقى أستابورا والنيل، وعلى مسافة 700 مرحلة تقع ميرويه، وهي مدينة تحمل اسم البحيرة نفسه. وهناك جزيرة أخرى إلى الأعلى من ميرويه يملكها المصريون المنفيون الذين ثاروا في عهد بساميتيخ؛ ويدعى هؤلاء سيمبريتيين، أي ما يشبه «الوافدين»[2]. وتحكم على هؤلاء امرأة - ملكة، إلاّ أنهم يخضعون لملوك ميرويه. أمّا المناطق المنخفضة من البلاد، على جانبي ميرويه على طول مجرى النيل نحو البحر الأحمر، فيسكنها الميغاباريون، و البليميّون الخاضعون للإثيوبيين، والمجاورون للمصريين؛ و على امتداد ساحل البحر يقطن التروغلوديتي (يقيم التروغلوديتي الذين قبالة ميرويه على بعد 10 أو 12 يوماً عن النيل)؛ أمّا الأجزاء الواقعة على الجهة اليسرى لمجرى النيل في ليبيا، فتقطنها قبيلة كبيرة هي قبيلة النوبيين التي تنتشر على مدى يمتدّ من ميرويه حتّى منعطف النهر؛ و لا يخضع النوبيون لسلطة الإثيوبيين، لكنّهم ينقسمون إلى عدد من الممالك. و يمتدّ الساحل البحري المصري من المصبّ البيلوسي حتّى المصبّ الكانوبي، 1300 مرحلة. هذه هي معطيات إيراتوسفين.

3- بيد أنه من الضروري أن نعطي وصفاً أكثر تفصيلاً لهذه المنطقة، وفي المقام الأوّل المناطق القريبة من مصر، و نسوق عرضنا بدءاً من الأماكن المعروفة لنسير به نحو الأماكن النائية. فالنيل يمنح بعض المزايا المشتركة لهذه البلاد والبلاد التي تجاورها من الأعلى، أي إثيوبيا، لأنه عندما يفيض يروي أراضي البلادين، ويجعل من أراضي الغمر وحدها أراضيَ صالحة للعيش؛ وعلى الضدّ من هذا، يعبر النهر الأماكن العالية الواقعة على ضفتيه أعلى من مجراه، فيحوّلها كلّها إلى مناطق قاحلة غير صالحة للعيش بسبب شحّ المياه. وعلى وجه العموم، يعبر النيل إثيوبيا كلّها (ولا يعبرها هذا النهر فقط)، ولكن ليس على خطّ مستقيم، وليس عبر الأماكن ذات الكثافة السكّانية العالية؛ أمّا مصر فليس فيها أيّ نهر آخر سوى نهر النيل، الذي يعبر البلاد كلّها على خطّ مستقيم، بدءاً من الشلال الأصغر، إلى الأعلى من سيينا وإليفانتين (اللتين تشكلان حدود مصر مع إثيوبيا)، حتّى مصبّه في البحر. وواقع الحال، هو أنّ أكثر الإثيوبيين يعيش حياة البداوة، حياة فقر و عوز بسبب شحّ التربة، والمناخ غير المعتدل، وبعدهم عنّا، بينما استقرّ لدى المصريين وضع مختلف تماماً. فمنذ أقدم الأزمنة يعيش هؤلاء حياة مدنية ثقافية، وقد سكنوا في أماكن شهيرة، وإنجازاتهم معروفة. وعلاوة على هذا يحظى المصريون بالاحترام والتبجيل من قبل الآخرين، لأنهم يعتقدون أنّ هؤلاء أحسنوا استغلال خصوبة تربة بلادهم، وقسموا أراضيها تقسيماً

صحيحاً، واعتنوا بها العناية الواجبة. فبعد أن اختاروا ملكهم قسّموا الشعب إلى ثلاث طبقات: دعوا إحدى هذه الطبقات طبقة المقاتلين، ودعوا الأخرى طبقة الفلاّحين، ودعوا الثالثة طبقة الكهنة؛ وقد أشرف هؤلاء الأخيرون على الشؤون المقدّسة، بينما اهتمت الطبقتان الأخريان بتلبية الاحتياجات البشرية، وتحديداً الشؤون العسكرية، وكلّ الشؤون الأخرى التي تتطلّبها حالة السلم، فحرثوا الأرض و زرعوها، وصنعوا المصنوعات الحرفية، وقد وفّر هذا كلّه موارد للملك. و كرّس الكهنة جهودهم للاشتغال بالفلسفة وعلم الفلك؛ و كانوا مقرّبين من الملوك. وفي الأوّل انقسمت البلاد إلى نومات[3]: انقسمت منطقة طيبة إلى 10 نومات، و الدلتا إلى 10 نومات، والمنطقة الفاصلة بينهما إلى 16 نوما (لكنّ بعض الكتّاب يقول، إن عدد النومات كان يساوي عدد قاعات اللابيرينتيوم؛ وعدد هذه أقلّ من 36)[4] ؛ ثمّ كانت النومات تنقسم بدورها إلى وحدات أخرى، فأكثرها كان ينقسم إلى توبارخات، وكانت هذه تنقسم إلى وحدات أصغر، وأصغر هذه التقسيمات كان يدعى أرورا[5]. وكان مثل هذا التقسيم الدقيق إلى أقسام صغيرة، أمراً ضرورياً جدّاً يفرضه الاختلاط الدائم للحدود الذي يتسبب به النيل في أثناء فيضانه، فقد كان النهر يقلّص الأراضي أو يزيدها، فيبدّل حدودها ويجعل علاماتها غير مرئية نهائياً، الأمر الذي يجعل التمييز بين أرضك وأرض الغير أمراً متعذراً. وعلى هذا النحو كانت تبرز ضرورة إجراء قياسات جديدة دائماً. ويقال إنّ علم الهندسة[6] قد نشأ من هذا، كما نشأ الإحصاء والحساب عند الفينيقيين بفضل تجارتهم[7]. وكما الشعب كلّه كذلك سكّان كلّ نوم انقسموا إلى ثلاثة أقسام، لأنّ البلاد كلّها قسّمت إلى ثلاثة أقسام متساوية. وكان نشاط الناس المرتبطين بالنهر متنوّعاً بقدر نجاحهم في التغلّب على الطبيعة بعملهم الدؤوب. لأنّ هذه البلاد بطبيعتها تعطي غلالاً أكثر مما تعطيه البلدان الأخرى وأكثر بفضل الري؛ فالفيضان الأكبر يروي بطبيعته أراض أكثر، ولكنّ المهارة غالباً ما تؤدّي دوراً مماثلاً في هذا الشأن، فحتّى عندما تمتنع الطبيعة عن مدّ يد العون [للفلاح]، ويكون الفيضان محدوداً، يمكن ريّ مساحات من الأراضي تساوي تلك التي يرويها الفيضان الأكبر، باللجوء إلى شقّ القنوات والبرك. وعلى أيّ حال كان المحصول في الزمن السابق على بترونيوس وكذلك الفيضان في أعلى مستوى لهما، عندما كان ارتفاع مستوى الماء في النيل يصل إلى 14 ذراعاً؛ أمّا عندما لم يكن يرتفع لأكثر من 8 أذرع، كانت تحلّ المجاعة. ولكن حينما كانت مصر تحت حكم بترونيوس، وكان مؤشر

ارتفاع منسوب المياه في النيل لا يسجّل سوى 12 ذراعاً، كان المحصول يبلغ أعلى مستوياته، ومرّة عندما لم يسجل ارتفاع منسوب الماء سوى 8 أذرع، فإنّ أحداً لم يشعر مع ذلك بوجود مجاعة. إنّ هذه هي بنية البلاد وتنظيمها؛ وها أنا أنتقل الآن لأصف ما يأتي بعد ذلك.

4- ابتداء من الحدود الإثيوبية يجري نهر النيل على خطّ مستقيم نحو الشمال حتّى يبلغ المكان الذي يدعى «الدلتا»، وبعد ذلك، بحسب قول أفلاطون[8] «يتفرّع عند القمّة»، فيقتطع هذا المكان ليبدو كأنه رأس مثلث ويتشكل ضلعا هذا المثلث من فرعي النهر اللذين ينفصلان بكلا الاتجاهين ويمتدّان نحو البحر: إحداهما يميناً إلى البحر عند بيلوسي، والأخرى يساراً إلى البحر عند كانوب وجارتها التي تدعى هيراقليا؛ ويشكّل الخطّ الساحلي من بيلوسي إلى هيراقليا قاعدة هذا المثلث. وعلى هذا النحو شكّل البحر وفرعا النيل جزيرة تدعى الدلتا، تبعاً لتشابه شكلها؛ ولكنّ المكان الذي يقع عند رأس المثلث يدعى بالاسم عينه أيضاً، لأنه يعدّ بداية الشكل المذكور، كما تدعى القرية الموجودة هناك دلتا أيضاً. وعلى هذا النحو هناك مصبّان لنهر النيل: أحدهما يدعى المصبّ البيلوسي، والآخر المصبّ الكانوبي أو الهيراقلي؛ وتقع بين هذين المصبّين 5 مصبّات أخرى (تستحقّ الذكر)، وعدد آخر من المصبّات الصغيرة؛ لأنه ابتداء من الأجزاء الأولى للدلتا شكّل كثير من فروع النيل التي تجري في مختلف أنحاء الجزيرة كثيراً من الأنهار والجزر، بحيث باتت الدلتا كلّها صالحة للملاحة، زد إلى ذلك أن القنوات قسّمت إلى قنوات يمكن الإبحار فيها بسهولة جعلت بعضهم يستخدم حتّى المعدّيات الطينية لعبورها. وعلى هذا النحو تشكّل هذه الجزيرة كلّها محيطاً يقارب 3000 مرحلة؛ وهي تحمل مع مناطق الدلتا الأخرى اسم مصر السفلى[9]. وفي مواسم فيضان النيل تغمر المياه البلاد كلّها ما عدا المناطق السكنية، وتجعل منها جزيرة؛ فالقرى تقوم فوق الهضاب أو المرتفعات الصناعية، وكذلك المراكز السكّانية الأخرى التي تعدّ مدناً كبيرة، وتبدو هذه كلّها من بعيد كأنها جزر. وفي الصيف تبقى مياه الفيضان ثابتة 40 يوماً، ثمّ تبدأ بالانحسار تدريجياً على النحو الذي كانت قد ارتفعت فيه؛ وخلال 60 يوماً يتعرّى السهل تماماً ويبدأ يجفّ، وكلما تسارع الجفاف، أسرعوا بحراثة الأرض وزراعتها؛ ويتسارع الجفاف خاصة في المناطق الحارّة أكثر. وتروى مناطق البلاد التي تقع إلى الأعلى من الدلتا بهذه الطريقة عينها، ما عدا أنّ النهر يجري باتجاه مباشر قرابة 4000 مرحلة في مجرى واحد؛ زد إلى

هـذا أنّ جـزراً صـغيرة تتـوزّع علـى طريقـه هنـا وهنـاك، وأكـبرهـا تلـك الـتي تشـمل نـوم هيراقليا، أو ينعطف النهر في مكان ما ليشـكّل قنـاة تمتـدّ أكـثر مـن المعتـاد في بحيرة كـبيرة أو في منطقـة يمكـن أن ترويهـا (مـثلاً، القنـاة الـتي تـروي نـوم أرسـينويا وبحـيرة ميريدا[10]، وكـذلك القنوات التي تجـري إلى بحيرة مريـوط). قصـارى القـول، إنّ مصـر كلّها تتألّف فقط من المنطقة النهرية، وتحديداً من أقصى أطرافهـا علـى جـانبي النيـل، ابتداء من حدود إثيوبيا حتّى رأس الدلتا، ونادراً ما تشغل في مكان ما حيّزاً عـامراً مـن غير انقطاع عرضه 300 مرحلة. وعلى هذا النحـو فـإن الـبلاد الـتي تجـفّ بعـد الفيضـان، تشـبه في طولهـا شـريط الحـزام، مـا عـدا المنـاطق الأكـثر أهميـة[11]. وشـكـل المنطقـة النهرية التي أتحدّث عنه هذا، وكـذلك شـكل الـبلاد كلّهـا، تعطيـه لهـا الجبـال الـتي تعلو على جانبها، والتي تمتدّ مـن منطقـة سيينا حتّـى البحـر المصـري؛ لأنّ المسـافة الـتي تمتدّ عليها هذه الجبال والمسافة التي تفصل بين واحدها والآخر، هـي التي تحـدّد تضـيّق النهر أو اتّساعه وتعطي الأرض المسـكونة أشـكالها المختلفـة. أمّـا المنطقـة الواقعـة علـى هذه الجهة من الجبال، فهي مقفرة على امتداد كبير[12].

5- لقد اسـتند الكـتّاب القـدماء اسـتناداً أساسـاً إلى التخمينـات، لكـنّ كـتّاب الأزمنة الأحدث بيّنوا، بعـد أن بـاتوا شـهود عيـان ، أنّ الأمطـار الصـيفية هـي الـتي تمـلأ النيل حينما يقع الفيضان في إثيوبيا العليا، خاصة في منطقتها الجبلية النائية، وأنـه بعـد توقّف الأمطـار يتوقـف الفيضـان أيضـاً بالتـدرّج. وبـات هـذا الواقـع واضـحاً جليّـاً لأولئـك الذين أبحـروا في الخلـيج العربـي حتّـى بلغـوا بـلاد القرفـة، كمـا بـات جليـاً تمامـاً للـذين كـانوا يرسـلون لصـيد الفيلـة[13] (أو لتأديـة أيّ مهمّـة أخـرى كـان بطالمـة مصـر يرونهـا ضرورية). فقد اهتمّ هؤلاء الملوك بمثل هذه الأشياء. خاصة بطليموس الملقّب فيلاديلف، لأنه تميّز بالفضول وبسبب ضعف جسده كـان دائم البحث عن الجديد من أسباب اللهو والتسـلية. بيـد أنّ هـذا لم يسـتهو الملـوك القـدماء كـثيراً، مـع أنهـم هـم أنفسـهم كـانوا يظهـرون اهتمامـاً واضـحاً بـالعلم، ومثلـهم كـان الكهنـة الـذين كـان الملـوك يصـرفون الشطر الأكبر من حياتهم معهم. ولذلك ليس هـذا وحـده مـا يثير دهشـتنا، إنمـا مـا يـثير الاسـتغراب أيضـاً، هـو أن سيسوسـتريس عـبر إثيوبيـا كلّهـا وصـولاً إلى بـلاد القرفـة ويعرضـون النصـب التذكـارية لحملتـه - الصـفائح الحجريـة والنقـوش- حتّـى يومنـا هـذا. وعندما استولى قمبيز على مصر، وصل مع المصرين حتّى ميرويـه نفسـها؛ ويقـال إنـه هـو مـن أعطـى الجزيـرة والمدينـة اسمهـا هـذا، لأنّ أختـه (وآخـرون يقولـون زوجتـه) توفّـت

هناك[14]. لكنّه في الأحوال كلّها دعا هذا المكان على شرف امرأة. ولذلك يبدو مستغرباً ألاّ يكون لدى ناس ذلك الزمن الذين كانت لديهم في الأوّل مثل هذه المعطيات، تصوّراً واضحاً تماماً عن أسباب هطول الأمطار، خاصة أنّ الكهنة دأبوا على أن يدوّنوها في كتّبهم المقدّسة وحافظوا هناك على كلّ ما يكشف عن معارفهم الرائعة. ولكن إذا كانوا قد اشتغلوا بالعلم على وجه العموم، فإنه كان ينبغي عليهم أن يدرسوا هذه المسألة أيضاً، وهي لا تزال تدرّس حتّى يومنا هذا: لماذا تهطل الأمطار في الصيف، وليس في الشتاء، ولماذا تهطل في أقصى الأجزاء الجنوبية، وليس في منطقة طيبة والمنطقة المجاورة لسيينا؟[15] بيد أنّ واقع حدوث فيضان النهر بسبب الأمطار لا يخضع للدراسة، وهذه المسألة لا تحتاج للشهود الذين يتحدّث عنهم بوسيدونيوس. فهو يقول مثلاً، إن كاالليسفين يرى في الأمطار الصيفية سبب الفيضانات، مع إنّ كاالليسفين أخذ هذا الزعم عن أرسطو، الذي كان قد أخذه بدوره عن ثراسيالكس الفاسوسي (أحد الفيزيائيين القدماء)، وهذا الأخير أخذه عن أحد ما آخر، كان قد أخذه عن هوميروس الذي دعا النيل «بالذي يجري من السماء».

ومرّة أخرى إلى مصر، إلى أرض النهر الذي يجري من السماء
[وجّهت سفني].

(*الأوذيسا* IV، 581)

لكنّي أعزف عن مناقشة هذه المسألة، لأنّ كتّاباً كثراً كانوا قد عالجوها؛ ويكفي أن أذكر اثنين منهم فقط (اللذين كتبا في زمني كتاباً عن النيل)، وأنا أقصد هنا إلى يودوروس، والمشّائي أريستون؛ فباستثناء البنية، فإنّ ما تبقّى كلّه متشابه لدى هذين الكاتبين: الأسلوب، والبراهين. ولأنه لا تتوفّر لديّ الجداول[16] لإجراء مقارنة، فقد قابلت مؤلّفاً بآخر؛ بيد أننا لا نستطيع أن نعرف إلاّ في معبد آمون[17]، مَنْ مِن هذين الكاتبين نسب لنفسه عمل الآخر. فقد اتهم يودوروس أريستون؛ لكنّ الأسلوب أقرب إلى أسلوب أريستون. وعلى هذا النحو لم يطلق الكتّاب القدماء اسم مصر إلاّ على شطر واحد من البلاد، هو الشطر المسكون الذي يرويه النيل، ابتداء من منطقة سيينا حتّى البحر؛ ثمّ أضاف كتّاب الأزمنة الأحدث وصولاً إلى زمننا هذا، على الجهة الشرقية من البلاد كلّ الأجزاء الواقعة بين الخليج والنيل تقريباً (لا يبحر الإثيوبيون في البحر الأحمر البتّة)؛ وأضافوا على الجانب الغربي الأجزاء التي تمتدّ حتّى الواحات، وعلى الساحل من مصبّ كانوب حتّى كاتاباسم وأملاك

القوريناثيين. لأنّ الملوك الذين جاؤوا بعد بطليموس[18]، بلغوا من القوّة ما مكّنهم من الاستيلاء على قورينائية نفسها، بل ألحقوا قبرص أيضاً بمصر. لكنّ الرومان الذين ورثوا البطالمة فصلوا أملاك هؤلاء وأبقوا لمصر حدودها السابقة. ويدعو المصريون الأماكن المأهولة التي تحيط بها صحارى كبيرة فتبدو كالجزر في عرض البحر، يدعونها «واحات». وفي ليبيا كثير من الواحات؛ ثلاث منها تقع بعيداً عن مصر، لكنّها تخضع لها. وبهذا أكون قد قدّمت وصفي العام الموجز لمصر. وسوف أتحدّث الآن عن مناطقها كلّ على حدة، ثمّ أتحدّث عن ميزات البلاد.

6- وبما أنّ الجزء الاكبر والأهمّ من هذا الوصف مكرّس للإسكندرية وتوابعها، فإنه ينبغي عليّ أن أبدأ من هذه المدينة. يمتدّ الساحل من بيلوسي إذا أبحرت غرباً حتّى مصبّ كانوب، على ما يقارب 1300 مرحلة، وأنا دعوت هذه المسافة «قاعدة» الدلتا[19]؛ ومن هنا إلى جزيرة فاروس 150 مرحلة أخرى. وفاروس هي جزيرة صغيرة متطاولة تكاد تلامس البرّ، وتشكّل ميناء بمدخلين؛ ويشكل ساحل البرّ خوراً، لأنه يمتدّ في عرض البحر برأسين بحريتين تقع بينهما جزيرة تغلق الخور لأنها تمتدّ بالطول في موازاة الشاطئ. وأقرب أطراف فاروس إلى البرّ والرأس البحرية الواقعة قبالتها (تدعى هذه الرأس، لوهيادس) طرفها الشرقي، الذي يجعل ثغر الميناء أضيق؛ وعلاوة على ضيق مدخل الميناء تقوم هناك أيضاً صخور بعضها تحت الماء وبعضها الآخر يبرز فوق سطح البحر؛ وتجعل هذه الصخور من الأمواج أمواجاً مزبدة إذ ترتطم بها آتية من عرض البحر. والرأس البحرية لهذه الجزيرة نفسها، عبارة صخرة تغسلها مياه البحر؛ ويقوم فوق هذه الصخرة بناء مذهل، هو عبارة عن برج كثير الطوابق مبنيّ من المرمر الأبيض[20]، ويحمل اسم الجزيرة نفسه. وهذا البرج هدية قدّمها سوسترات الكنيدسي، صديق الملوك، من أجل إنقاذ البحارة، على حدّ قول النقش؛ فالساحل المنبسط خال من المراسي على أيّ من جانبيه، وأمامه تقع صخور تغمرها المياه، عدّاك عن المخاضات الضحلة، لذلك كان من الضروري أن تكون أمام البحارة وعلى مرآى منهم علامة عالية مضيئة يسترشدون بها ليصلوا بدقّة إلى مدخل الميناء. وليس الوصول إلى الثغر الغربي سهلاً بدوره، مع أنه لا يتطلب كثيراً من الحذر. فهو يشكل الميناء الثانية التي تدعى ميناء يونوستوس[21]. وتقع هذه الميناء أمام ميناء أخرى اصطناعية ومغلقة[22]. لأنّ الميناء التي لها مدخل من جهة برج فاروس المذكور، هي ميناء كبيرة، بينما الميناءان الأخريان المجاورتان مباشرة للميناء الأخرى في تجويف الخور، منفصلتان

عنها فقط بمحبس يدعى هيبتاستاديوس[23]. ويشكّل هذا المحبس المائي جسراً يمتدّ من البرّ إلى الشطر الغربي من الجزيرة التي لا تترك سوى مدخلين مفتوحين إلى ميناء يونوستوس، وهما متصل بعضهما مع بعض بجسر أيضاً. ولم تكن هذه المنشأة مجرّد جسر إلى الجزيرة، بل كانت قناة مائية أيضاً، في أقلّ تقدير عندما كانت فاروس مأهولة. أمّا في الوقت الراهن فقد خرّبها قيصر الإلهي وأخلاها من سكّانها، ونهبها أثناء الحرب على الإسكندريين، لأنّ الجزيرة أخذت جانب الملوك. ومع ذلك لا يزال يقيم هناك غير بعيد عن البرج، بعض البحارة. أمّا فيما يخصّ الميناء الكبيرة، فعدا عن أنّ المحبس المائي والشروط الطبيعية تغلقها جيّداً، إلاّ أنها عميقة قرب الشاطئ إلى حدّ يسمح لأكبر السفن بالرسوّ فيها عند السلّم. إلاّ أنّ ملوك مصر السابقون، كانوا راضين على وجه العموم ومكتفين بما عندهم، ولم يكونوا بحاجة أبداً لأي بضائع مستوردة، ولذلك كانوا عدائيين تجاه البحارة كلّهم، خاصة الإغريق (لأن هؤلاء كانوا لصوصاً طامعين دوماً بما يملكه الآخرون، فأرضهم شحيحة)؛ فقد أقاموا حراسة على هذا المكان وأمروا الحرّاس بتوقيف كلّ من يقترب من الجزيرة. وحدّد الملوك مكان إقامة هؤلاء الحرّاس في المكان الذي يدعى راكوتيدا، والذي يعدّ الآن جزء مدينة الإسكندرية الذي يقع إلى الأعلى من أحواض بناء السفن وإصلاحها، بيد أن هذا كان في تلك الأزمنة قرية؛ وقد أعطيت ضواحي هذه القرية للرعاة الذين كان يمكنهم أيضاً أن يعوقوا أيّ هجوم يشنّه الغرباء. وحينما وصل الإسكندر إلى هنا ورأى أن الموقع ملائم، قررّ أن يبني فيه عند الميناء مدينة محصّنة. وذكر الكتّاب حدثاً، بصفته علامة على الرخاء الذي ينتظر المدينة، وقع لدى وضع مخطط بنائها. فعندما أخذ المعماريون يحدّدون بالجير[24] خطوط محيط مدينة المستقبل، نفذ مخزون الجير الذين كان بين أيديهم؛ وبعد أن وصل الملك صرف الموظفون القائمون على شؤون التموين جزءاً من الدقيق المعدّ للعاملين؛ وبهذا الدقيق خططوا عدداً من الشوارع أكبر مما كان من قبل. ويقولون، إن هذه الواقعة عدّت فأل خير[25].

7- إن فوائد موقع المدينة متنوّعة؛ أوّلاً، يشاطئ ساحتها بحران: من الشمال البحر الذي يسمّى البحر المصري، ومن الجنوب مارييا التي تدعى مريوط. وتمتلئ هذه البحيرة بمياه كثرة من القنوات التي استجرّت من النيل، كما من أعاليه كذلك من جهة فروعه؛ وينقل عبر هذه القنوات من البضائع أكثر مما ينقل من البحر، ولذلك فإن ميناء البحيرة هي فعلاً أكثر غنى من الميناء البحرية؛ والتصدير من الإسكندرية

هنا أكثر من الاستيراد؛ وهذا يمكن أن يحكم عليه كلّ من زار الإسكندرية أو ديكيارخيا وراقب سفن الشحن لدى رسوّها وإقلاعها، وإلى أيّ حدّ هي مثقلة أو خفيفة لدى وصولها أو مغادرتها. وبالإضافة إلى القيمة العالية للبضائع المتجهة بالاتجاهين، إلى الميناء البحرية كما إلى ميناء البحيرة، ينبغي أن نذكر أيضاً هواء المدينة الصحّيّ. وسبب هذا أيضاً هو أنّ البلاد محاطة من جهتين بالمياه بسبب فيضان النيل الذي يحدث في وقته الملائم. فالهواء في المدن الأخرى الواقعة على البحيرات ثقيل خانق، لأنّ أطراف البحيرة تتحوّل في فصل الصيف إلى مستنقعات تتشكّل بسبب التبخّر الذي تتسبّب به حرارة أشعة الشمس. وعلى هذا النحو، عندما تصعد إلى الأعلى مثل هذه الكمية من الرطوبة الملوّثة، فإن الناس يتنفّسون هواء غير صحّي يتسبّب بأمراض قاتلة. أمّا في الإسكندرية فإن النيل يمتلئ في أوّل الصيف بالماء، فتمتلئ البحيرة ولا تسمح للمياه المستنقعية أن تلوّث الأبخرة المتصاعدة. وتهبّ في هذا الوقت أيضاً الرياح الإيتيّة[26] الآتية من الشمال ومن البحر، ولذلك يقضي الإسكندريون صيفاً هانئاً.

8- ومن حيث تخطيطها تشبه المدينة الكلاميدس[27]؛ فأضلاعها الطويلة التي يقارب قطر واحدتها 30 مرحلة، تغسلها المياه من الجانبين؛ أمّا أضلاعها القصيرة فهي عبارة عن برازخ عرض واحدها 7 أو 8 مراحل، يحدّها البحر من جهة والبحيرة من الجهة الأخرى. وتخترق الشوارع أرجاء المدينة كلّها، وهي شوارع صالحة للتنقل عبرها خيّالاً أو في المركبات؛ وفيها شارعان عريضان جدّاً، إذ يتجاوز عرض واحدهما البليفر الواحد، ويتقاطع واحدهما مع الآخر في زاوية قائمة فيشطر كلّ منهما الآخر في المنتصف. وفي المدينة مساحات رائعة من الأراضي المقدّسة، والقصور الملكية التي تشكّل ربع مساحة المدينة كلّها، وربّما ثلثها. فعلى النحو الذي كان فيه كلّ ملك يضيف، بدافع البذخ، زخرفة ما إلى المعالم العائلية، كذلك كان كلّ منهم يبني على نفقته الخاصة قصراً يضاف إلى القصور التي بنيت من قبل، وهذا ما يصحّ عليه قول الشّاعر:

واحدها [الأبنية] يمسك بالآخر.

(*الأوذيسا* XVI، 266)

فالقصور يتّصل بعضها ببعض وبالميناء، وينسحب هذا حتّى على تلك التي تقع

خارج الميناء[28]. ويعدّ الموسيوس[29] أيضاً واحداً من أجزاء القصور الملكية؛ ففيه مكان للتنزّه، ورواق استراحة، ومنزل كبير يقع فيه المطعم المشترك للعلماء الذين يعملون في الموسيوس. ولهذه الأخوية من العلماء ملكيتها المشتركة، وكاهنها الذي يدير شؤون الموسيوس، وفيما مضى كان الملوك هم الذين يعيّنون هذا الكاهن، أمّا الآن فيعيّنه قيصر. ويشكّل السيما جزءاً لا يتجزّأ من منشآت القصور الملكية. والسيما سياج يحيط بأضرحة الملوك وضريح الإسكندر. فقد نجح بطليموس بن لاغ بانتزاع جثمان الإسكندر[30] من بيرديكاس، عندما كان هذا ينقله من بابل، وانعطف به نحو مصر يدفعه تعطّشه لأخذ البلاد لنفسه. زد إلى هذا أنّ بيرديكاس قتل على أيدي جنوده في الوقت الذي هاجمه فيه بطليموس وحاصره على جزيرة مقفرة. وهكذا قتل بيرديكاس إذ اخترقت جسده رماح جنوده الذين هاجموه؛ أمّا الملوك الذين كانوا معه: أريدييوس وأبناء الإسكندر، وروكسانا زوجة الإسكندر، فقد أرسلوا إلى مقدونيا؛ وحمل بطليموس جثمان الإسكندر ودفنه في الإسكندرية التي لا يزال فيها حتّى يومنا هذا[31]، ولكن ليس في الناووس نفسه، كما في الماضي، لأنّ النعش الحالي من الحجر الشفاف، بينما كان بطليموس قد سجّى الجثمان في ناووس ذهبي. ولكنّ بطليموس المدعو «كوكّيس»[32]، و«باريساكتوس»[33]، الذي جاء من سوريا، سرق الناووس، لكنّه طرد منها فوراً، فباءت سرقته بالفشل.

9- في الميناء الكبيرة، لدى مدخل الجهة اليمنى، تقع جزيرة فاروس وبرجها، وعلى الجهة الأخرى توجد الصخور التي تغمرها المياه، ورأس لوهيادس البحرية وعليها القصر الملكي. ولدى مدخل الميناء من اليسار، ترى القصور الملكية الداخلية المتخالطة مع قصور لوهيادس؛ وفيها كثير من المخادع والحدائق. وتقع تحتها ميناء صناعية محفورة مخفية هي ملكية خاصة للملوك، مثلها مثل جزيرة أنتيرودوس الصغيرة والميناء الصناعية الواقعة أمامها بقصرها الملكي وميناءه الصغيرة. وقد دعيت الجزيرة باسمها هذا كأنها منافسة رودوس. ويقوم فوق الميناء الصناعية مسرح، ثمّ يأتي البوسيديوس، وهو إذا جاز القول، ثنية تبرز ممّا يدعى الإيمبوريوس مع معبد بوسيدون. وقد ألحق أنطونيو بهذه الثنية ردميات تمتدّ أكثر في وسط الميناء، وعلى أطراف هذه الردميات بنى قصراً ملكياً دعاه تيمونيوس. وكان هذا آخر ما قام به أنطونيو من أعمال، عندما تركه أصدقاؤه فأبحر عائداً إلى الإسكندرية بعد هزيمته عند أكسيوم[34]، وقد اختار أن يقيم في هذا القصر ما تبقى له من أيام على قيد

الحيـاة، بعيـداً عـن مثـل هـذا الكـمّ مـن الأصـدقاء[35]. ويقـع بعـد ذلـك معبـد قيصـر، والإيمبوريوس ومستودعات البضائع؛ ثمّ تليها أحواض بنـاء السـفن وإصـلاحها الـتي تمتـدّ حتّى هيبتاستاديوس. إنّ هذا هو وصفي للميناء الكبيرة وضواحيها.

10- وتأتي بعد الهيبتاستاديوس ميناء يونوستوس، وفوقها ميناء صناعية تحمل اسم «كيبوت»؛ وفيها حوض لبناء السفن وإصلاحها. وأبعد في العمق تقع قناة صالحة للملاحة تمتدّ حتّى بحيرة مريوط. ويبقى خلف القناة شطر صغير من المدينة، ثمّ تأتي ضاحية- مدينة موتى- فيها كثير من البساتين، والمقابر، والأقبية الملائمة لتحنيط الموتى. وعلى هذا الجانب من القناة يقع السارابيوم وسواه من الأماكن المقدّسة القديمة الأخرى شبه المهملة الآن، لأنّ أبنية جديدة شيّدت اليوم في مدينة الموتى؛ ففيها على سبيل المثال مدرّج وستاد تقام فيه المباريات الرياضية كلّ خمس سنوات؛ أمّا الأبنية القديمة فهي مهملة ومتروكة. قصارى القول، إنّ المدينة مليئة بالمعالم الاجتماعية والمعابد؛ وأجملها هو مبنى الجمنازيوم بأروقته التي يتجاوز طولها المرحلة الواحدة. ويقوم في مركز المدينة مبنى المحكمة وحدائق. ويقع هنا أيضاً حرم بان، وهو شيء ما يشبه «المرتفع»، الذي صنعته يد الإنسان؛ ويبدو على شكل كوز سكب الزيت ويشبه الهضبة الصخرية، وتقود إلى هذا المرتفع طريق حلزونية الشكل[36]؛ ويمكن للواقف على قمته أن يرى كلّ المدينة التي تنبسط تحته. ويخترق المدينة شارع طويل يمتدّ من مدينة الموتى ويمرّ على مقربة من الجمنازيوم إلى البوابات الكينوبية؛ يليه ما يدعى الإيبودروم والشوارع الأخرى المجاورة وصولاً إلى قناة كينوب[37]. وإذ تعبر الإيبودروم، تدنو من مدينة الموتى التي لها قرية قرب البحر ليست أصغر من المدينة. وتقع مدينة الموتى على بعد 30 مرحلة من الإسكندرية. وقد أحاط أغسطس قيصر هذا المكان بما يليق به من الإجلال والتبجيل، لأنه انتصر في المعركة التي وقعت هنا بينه وبين أنصار أنطونيو. وبعد أن استولى على المدينة من الجولة الأولى، أرغم أغسطس أنطونيو على الإنتحار، وأرغم كليوباتر على الاستسلام. ولكنّها وضعت حدّاً لحياتها بعد فترة وجيزة قضتها في السجن: [هلكت] بلدغة حيّة أو(لأنه ثمّة روايتان) بمرهم سام لتدليك الجسد. وبهذا يكون قد وضع حدّ لوجود إمبراطورية اللاجيديين التي عاشت سنين طويلة.

11- فبطليموس بن لاغ كان خليفة الإسكندر؛ وخلف فيلاديلف بطليموس، ثمّ خلف يوريجيت فيلاديلف؛ ثمّ توالى بعد ذلك على عرش مصر فيلوباتور[38] بن

اجاثوكليس وإيبفان وفيلوميتور، وفي غضون ذلك كان الابن دوماً يرث أباه؛ لكن فيلوميتور ورثه أخوه يوريجيت الثاني الذي دعوه أيضاً فيسكون؛ وكان بطليموس المدعو لاثور[39] خليفة هذا الأخير؛ أمّا لاثور فقد ورثه أوليت، الذي كان في زمننا والد كليوباترا. لكنّ حياة البذخ أفسدت كلّ الملوك الذين جاؤوا بعد بطليموس الثالث، فأداروا شؤون الدولة إدارة أقلّ كفاءة من أسلافهم، بيد أنّ الأسوأ بينهم بطليموس الرابع وبطليموس السابع، وبطليموس الأخير- أوليت؛ فهو إضافة إلى نمط عيشه المستهتر، كان يعزف على المزمار ويرافق بعزفه فرق الغناء،وكان فخوراً بهذا إلى درجة أنه لم يخجل من إقامة مباريات موسيقية في القصر الملكي نفسه؛ وكان يشارك هو نفسه في تلك المباريات ضدّ المتبارين الآخرين. لكنّ الإسكندريين طردوه. وبما أنه لم يكن بين بناته الثلاث سوى ابنة واحدة شرعية، هي ابنته الكبرى[40]، لذلك أعلنوها ملكة عليهم؛ لكنّ ولديه الصغيريّ السنّ[41] أقصيا عندئذٍ تماماً عن السلطة. وبعد جلوسها على العرش دعوا المدعو كيبيوسكات[42] من سوريا ليتزوّج الملكة، وكان هذا يدّعي انتماءه إلى السلالة الملكية السورية. ولكنّ الملكة أمرت بعد مرور أيام قليلة بخنق هذا الرجل، فلم تتحمّل فظاظته ودناءته؛ وظهر بدلاً منه رجل آخر قدّم نفسه ابناً لميتريدات إيفباتور؛ وقد كان هذا هو أرخيلايوس ابن أرخيلايوس الذي حارب سولاّ، والذي كرّمه الرومان بعد ذلك؛ فقد كان جدّ الملك الأخير الذي حكم القبدوقيين في زمننا هذا، وكاهناً في كومانا التي على البونتس. وكان في ذلك الوقت يعيش مع غابينوس، ويعدّ العدة لحملة ضدّ البارثيين؛ ولكنّ بعضهم جاء به إلى الملكة خفية عن غابينوس، وأعلنوه ملكاً[43]. وفي الوقت نفسه استقبل بومبييوس الأكبر أفليت الذي كان قد وصل إلى روما، وقدّمه إلى السينات وحصل له على موافقة بإعادته إلى عرشه، وإعدام العدد الأكبر من أعضاء السفارة التي جاءت ضده (كان عددهم 100 شخص)؛ وكان بين هؤلاء السفراء ديون الفيلسوف الأكاديمي الذي غدا السفير الأكبر. وعلى هذا النحو لم يكتف بطليموس الذي أعاده غابينوس إلى العرش بقتل أرخيلايوس، بل قتل ابنته أيضاً. وبعد أن أضاف بعض الوقت لسنوات حكمه، مات بطليموس مريضاً؛ وترك وراءه ولدين وابنتين؛ وكانت الكبرى منهما كليوباترا. فأعلن الإسكندريون الابن الأكبر وكليوباترا ملكين؛ لكنّ أنصار الفتى أعلنوا العصيان وطردوا كليوباترا، فأبحرت ومعها أختها إلى سوريا. وفي ذلك الوقت كان بومبييوس الأكبر، قد فرّ هارباً من باليفرسال وجاء إلى بيلوسي وإلى جبل

كاسيوس. فقتله أنصار الملك غدراً؛ ولمّا وصل قيصر إلى مصر أمر بقتل الملك الفتى، واستدعى كليوباترا من منفاها ونصّبها ملكة على مصر، وعيّن شقيقها الأصغر الذي بقي على قيد الحياة شريكاً لها، مع أنه كان لا يزال صغير السن. وبعد موت قيصر ومعركة فيلبي[44]، توجّه أنطونيو إلى آسيا؛ وقد أحاط كليوباترا بمزيد من الإجلال والتكريم، بل اختارها زوجة له وأنجب منها؛ وخاض معها معركة أكسيوم، وهرب معها حينما هربت. وبعد ذلك لاحقهما أغسطس قيصر وقضى على كليهما ووضع حدّاً لعربدة ملوك مصر واستهتارهم.

12- ومصر الآن ولاية، ومع أنها تؤدّي إتاوات مهمّة، إلاّ أنّ أناساً عقلاء حكماء[45] يديرون شؤونها - الولاة الذين يرسلون إلى هنا من وقت لآخر. فالمرسل إلى هنا يحلّ محلّ الملك؛ فيخضع له القاضي الأكبر[46] الذي له السلطة العليا في أكثر الدعاوي القضائية؛ والشخصية الأخرى، هو الشخص الذي يدعى الإيديولوج[47]، والذي له الحق في الرقابة على أيّ ملكية متروكة لا مالك لها، وعلى الملكية التي ينبغي أن تعود لقيصر. ويلحق بهؤلاء الموظفين الكبار معتوقو قيصر، وكذلك المدراء الذين يعهد إليهم بأمور لها هذه الأهمية أو تلك. وتعسكر هناك ثلاثة أفواج من الجنود؛ أحدها في المدينة، والاثنان الآخران في أنحاء مختلفة من البلاد؛ وهناك إضافة إلى هذا تسع كوغورتات رومانية: ثلاث في المدينة، وثلاث على الحدود مع إثيوبيا تقيم في سيينا لحماية هذه المنطقة، وثلاث في باقي أجزاء البلاد. كما توجد أيضاً ثلاث فصائل من سلاح الفرسان موزّعة على أهمّ الأماكن. ومن الحكّام المحلّيين في المدينة: الإيكسيجيت[48] الذي يرفل بالأرجوان، وله حق التشريفات المتوارثة والاهتمام باحتياجات المدينة؛ وسكرتير الدولة[49]؛ والقاضي الأكبر[50]؛ وقائد الحرس الليلي[51]. لقد كانت هذه السلطات المحلّية موجودة في زمن الملوك أيضاً، لكن سوء الإدارة الملكية والتعسّف أفضيا إلى انهيار رخاء المدينة. وعلى أيّ حال فإن بوليبيوس الذي زار المدينة في ذلك الوقت، يتحدّث باشمئزاز عن واقع الأشياء فيها عندئذ؛ فعلى حدّ قوله إنّ في المدينة ثلاث مجموعات من الناس: أوّلاً، المجموعة المصرية أو المحلّية التي تتميّز بسرعة الانفعال، وتصعب قيادتها والسيطرة عليها؛ ثانياً، المجموعة التي تضمّ أعداداً كبيرة من الجنود المأجورين، وهي مجموعة من المتهتيكين المتمرّدين (وفق التقليد القديم كان المصريون يقتنون مأجورين غرباء، لكنّ ضعف الملوك وضآلتهم جعلا هؤلاء يتعلّمون قيادة أنفسهم بأنفسهم ولا يخضعون للآخرين)؛ ثالثاً،

مجموعة الإسكندريين التي بدورها لم تكن تميل إلى الحياة المدنية للأسباب نفسها، إلاّ أنّ أفرادها كانوا أفضل من أولئك الآخرين[52]؛ ومع أنهم كانوا قبيلة مختلطة، إلاّ أنهم مع ذلك كانوا من حيث المنشأ إغريقاً، وحافظوا على ذكريات العادات الإغريقية المشتركة. وبعد أن أُبيد أكثر أفراد هذه المجموعة، خاصة في عهد يوريجيت فيسكون، الذي في عهده زار بوليبيوس الإسكندرية (لأن فيسكون الذي أرهقته الانتفاضات أطلق أيدي الجنود مراراً لتعمل السيف في رقاب الحشود الشعبية)، كانت الحالة في المدينة، كما يقول بوليبيوس، على نحو ينطبق فيه عليها قول الشاعر:

أأعود إلى مصر ثانية وأقطع كلّ تلك الطريق الطويلة المضنية.

(*الأوذيسا* IV، 483)

13- وفي عهود الملوك الذين حكموا بعد ذلك، كانت الأوضاع على حالها نفسها، إن لم تكن أسوأ؛ وبحسب الممكن عالج الرومان أكثر العيوب، إذ فرضوا النظام في المدينة، كما أشرت سابقاً[53]، وعيّنوا في البلاد موظفين دعوهم إيبيستراتيجيين[54]، ونومارخ[55]، وإيتارخ[56]، وعهدوا إليهم بإدارة الشؤون الأقلّ أهمية. وأهم ميزة بين ميزات موقع المدينة، هو أنه المكان الوحيد في مصر كلّها الذي جعلته الطبيعة رائعاً في أمرين: في العلاقات البحرية بفضل موانئ ممتازة بالنسبة للتواصل مع الأجزاء الداخلية من البلاد، لأنه من السهل نقل كلّ شيء وتجميعه في مكان هو أكبر موانئ المعمورة. وعليه يمكننا أن نذكر الميزات الآتية لهذه المدينة. ففيما يخصّ واردات مصر يقول سيتسيرون في إحدى خطبه[57]، إن أفليت والد كليوباترا كان يتلقى إتاوات سنوية مقدارها 12500 تالانت[58]. وإذا كان شخص أحمق أدار شؤون البلاد باستهتار ولامبالاة يتلقّى مثل هذه الواردات الكبيرة، فما الذي يمكن أن نقوله عن واردات اليوم التي تجبى بحرص شديد ودقّة متناهية، وعندما تضاعفت التجارة مع الهنود والتروغلوديتي إلى هذه الدرجة؟ في الماضي بالكاد كانت تجرؤ 20 سفينة على اجتياز الخليج العربي لتخرج إلى ما وراء المضيق؛ أمّا الآن فإن أساطيل كبيرة تبحر حتّى الهند وأطراف إثيوبيا حيث يحملون إلى مصر مختلف أنواع البضائع الثمينة لترسل من هنا إلى شتّى البلدان الأخرى؛ ولذلك تجبى رسوم مضاعفة: رسوم الاستيراد ورسوم التصدير؛ ورسوم السلع الثمينة كبيرة جدّاً. والبلاد تستغل فعلاً احتكارها لكثير من السلع؛ فالإسكندرية وحدها تعدّ إلى درجة كبيرة مخزن مثل

هذه السلع، وهي إضافة إلى ذلك تزوّد الأصقاع الغربية بها. ونحن يمكننا أن نلاحظ حسنات هذا الموقع إذا ما طفنا حول البلاد وزرنا أوّلاً ذلك الشطر من الساحل الذي يبدأ عند قورينائية، وتعرفنا إلى البرابرة المارماريدس الذين يعيشون بجواره.

14- فإذا أبحرنا من كاتاباسم إلى باريتونيوس مباشرة، فإن طول الطريق 900 مرحلة. وباريتونيوس مدينة وميناء كبيرة امتداد محيطها 40 مرحلة. ويدعو بعضهم المدينة باسم باريتونيوس، بينما يدعوها آخرون آمونيوس. وتأتي بعد ذلك قرية للمصريين، ورأس إينيسيفيرا البحرية، وصخور تينداروس: 4 جزر صغيرة فيها ميناء؛ يلي ذلك مباشرة رأس دريبان البحرية، وجزيرة إينيسيبيا وميناؤها، ثمّ قرية أبيس التي تفصلها عن باريتونيوس 100 مرحلة، وعن معبد آمون مسير 5 أيام. والمسافة من باريتونيوس إلى الإسكندرية 1300 مرحلة تقريباً؛ وتأتي بعد ذلك في أوّل الأمر رأس بحرية تربتها بيضاء تدعى لوكوس أكتوس، وميناء ثينيكونت، وقرية بنيجييوس، وبعد ذلك جزيرة بيدونيا وميناؤها، وأنتيثيرا التي تبعد مسافة طويلة عن البحر. ولا تنتج هذه المنطقة كلّها نبيذاً جيّداً، لأنّ كلّ وعاء للنبيذ فيه من ماء البحر أكثر مما فيه من النبيذ؛ ويدعى هذا النبيذ ليبيّاً؛ ويستهلكه (كما يستهلك الجعة أيضاً) القسم الأعظم من شعب الإسكندرية؛ ويسخرون من الأنتيثيريين أكثر ما يسخرون بسبب هذا النبيذ الرديء. ثمّ تأتي ميناء ديريس[59] التي دعيت بهذا الاسم لأنّ صخرة سوداء تشبه جلد الحيوان تقع على مقربة منه؛ ويدعى المكان الذي يقع بجوارها زيفيروس. وتقع بعد ذلك ميناء أخرى تدعى لوكاسبيس[60]، ثمّ عدة موانئ أخرى؛ وبعدها كينوس- سيما[61]؛ ثمّ تأتي تابوسيريس التي لا تقع على البحر، وفيها تقام احتفالات شعبية كبيرة (هناك تابوسيريس أخرى على الجانب الآخر للإسكندرية، بعيداً عنها مسافة كبيرة). وعلى مقربة من تابوسيريس، عند البحر، يقع مكان صخري يجتمع فيه في كلّ وقت من أوقات السنة حشد من المتبطلين الذين لا يفعلون شيئاً سوى اللهو والمرح. ويأتي بعد ذلك بلينثينا، وقرية تدعى نيقيا، تليها قلعة كيرسونيس القريبة من الإسكندرية ومدينة الموتى، فهي لا تبعد عنهما أكثر من 70 مرحلة. وتتبسط بحيرة ماريبيا[62] حتى كيرسونيس بعرض 150 مرحلة وطول أقلّ من 300 مرحلة. وفي البحيرة 8 جزر، وضواحيها كلّها مسكونة بأعداد كبيرة من الناس؛ ومحصول العنب في هذه المنطقة جيّد لدرجة أنهم يسكبون نبيذ مريوط في أوان حتّى يغدو معتّقاً.

15- وينمو البرديّ في مستنقعات مصر وعلى ضفاف بحيراتها، كما ينمو الفول

المصري (الذي يخرج منه الكيبوريوس)[63]؛ ولكلّ من هذين النباتين ساق يقارب ارتفاعها 10 أقدام. ولكنّ البرديّ عبارة عن ساق عارية في رأسها ضمّة من الأوراق، أمّا الفول فيعطي أوراقاً وزهوراً في مختلف أجزائه، كما يعطي ثمراً يشبه ثمار فولنا نحن، لكنّه يتميّز عنه بحجمه وطعمه. وحقول الفول هذه منظرها يبهج القلب وتمنح السعادة لمن يريد أن يولم هناك. ويولم المصريون في هذا المكان على قواربهم ذات القمرات، فيتوغلون في حقول الفول ويتفيّؤون ظلالها، لأنّ أوراق هذا النبات كبيرة إلى حدّ أنّهم يستخدمونها بدلاً من أواني الشرب والكؤوس؛ فلهذه الأوراق ما يشبه التجويفات المعدّة لمثل هذه الاستخدامات؛ وورش الإسكندرية مليئة فعلاً بهذه الأوراق التي يستخدمونها كأواني، وتشكل هذه الأوراق أحد مصادر الدخل بالنسبة للقرى. إن هذه هي مواصفات الفول المصري وخاصياته. أمّا فيما يخصّ البرديّ فإنه لا ينمو هنا بكميات كبيرة (لأنهم لا يزرعونه)؛ لكنّه في الأجزاء السفلى من الدلتا موجود بكثرة: أحد نوعيه رديء، والآخر الكهنوتي تحديداً جيّد. وقد لجأ هنا بعض من أراد أن يحسن دخله إلى الحيلة اليهودية التي ابتكرها اليهود واستخدموها في التعامل مع النخيل (خاصة شجرة الجوز)، وشجرة البلسم؛ فقد منع هؤلاء زراعة البرديّ في أماكن كثيرة، وبسبب النقص في وجوده، ارتفعت أسعاره، فارتفع بالتالي دخلهم من تجارته، مع أنّ هذا السلوك أدّى إلى إلحاق الأذى بالاستخدام العام لهذا النبات.

16- على الجانب اليميني، إذا خرجت من البوابات الكانوبية، تقع قناة تتّصل بالبحيرة وتؤدّي إلى كانوب؛ ولا يبحرون في هذه القناة إلى سخيديا فقط، إلى النهر الكبير، إنّما إلى كانوب أيضاً، ولكن إلى إيليفسين أوّلاً. وإيليفسين هذه هي قرية قرب الإسكندرية ونيكوبولس وتقع على قناة كانوب مباشرة؛ وفيها تعريشات وأبراج تطلّ على مناظر خلاّبة لمن يريد أن ينادم سواء من الرجال أو النساء؛ وتبدو هذه كأنها بداية نمط العيش «الكانوبي»[64]، والرعونة السائدة هناك. وما إن تجتاز مسافة قصيرة بعد إيليسفين حتّى تدنو من قناة على يمينك تقود إلى سخيديا. وتقع سخيديا على بعد 4 سخينات من الإسكندرية؛ وهي قرية مدينة فيها مرسى لقوارب ذات قمرات يبحر عليها الولاة إلى مصر العليا. وتقع في سخيديا أيضاً نقطة لجباية الرسوم المفروضة على البضائع الصاعدة والنازلة عبر النهر؛ ولهذا الغرض بني على النهر جسر عائم[65] أعطى هذا المكان اسمه. وبعد القناة التي تقود إلى سخيديا يتّجه الإبحار بعد ذلك إلى كانوب في موازاة ذلك الجزء من الخطّ الساحلي، الذي يمتدّ من

فاروس حتّى مصب كانوب؛ لأنّ حيّزاً من الأرض يمتدّ هنا شريطاً ضيّقاً بين البحر والقناة التي يقع عليها السابوسيريس الأصغر بعد نيكوبوليس، وكذلك زيفيروس، وهي رأس بحرية عليها معبد صغير لأفروديت وأبوللون، إن مدينة ثونيدا كانت تقع هنا، وقد دعيت المدينة باسم الملك الذي استقبل منيلايوس ويلينا على الرحب والسعة. وهذا في أقلّ تقدير ما يقوله عن عقاقير يلينا:

بسخاء وهبتها بوليدامنا، زوجة ثوون.

(*الأوذيسا* IV، 228)

17- إنّ كانوب هي مدينة تبعد عن الإسكندرية 120 مرحلة على الطريق البّرية، وقد دعيت باسم ربّان سفينة منيلايوس كانوب الذي مات هنا. وفي المدينة معبد لسرابيس محاط بقدر عظيم من التبجيل، فهو يصنع معجزات في المداواة جعلت حتّى كبار الشخصيات تؤمن بقدرته الشفائية، ويبيت هؤلاء فيه طلباً لمنفعة شخصية ما، أو يرغمون الآخرين على المبيت فيه. ويدوّن بعضهم حالات الشفاء التي حصلت، ويسجّل آخرون الكرامات السامية للمتنبّئين المحلّيين وجدارتهم التي لا ترقى إليها جدارة. لكنّ أوّل ما يثير الدهشة، هو منظر الحشود المهولة المبحرة نزولاً في القناة من الإسكندرية لتشارك في الاحتفال بالعيد الشعبي المشترك. فكلّ نهار وكلّ ليلة تجتمع حشود الشعب في القوارب، وتعزف على المزامير، والناي، وتدور في رقص مجنون لا ضابط لتهتكه، يشارك فيه الرجال والنساء معاً؛ ويشارك في حفل اللهو هذا سكّان كانوب أيضاً، الذين يملكون نزلاً على القناة ويديرونها بأنفسهم، وهذه النزل مؤهّلة خاصة للراحة وممارسة مثل هذا اللهو.

18- وبعد كانوب تقع هيراقليا وفيها معبد لهرقل، ثمّ يليها مصب كانوب، وبداية الدلتا. والأماكن الواقعة على الجانب الأيمن من قناة كانوب، هي نوم منيلايوس، الذي دعي باسمه هذا تيمناً باسم شقيق بطليموس الأوّل، بيد أنني أقسم بزيوس، أن التسمية لا علاقة لها باسم منيلايوس البطل، كما يزعم بعض الكتّاب، ومنهم أرتيميدور. وبعد مصب كانوب يأتي المصبّ البولبيتي، ثمّ السيبينّيتي، فالفاتنيتي، وهو الثالث من حيث الحجم مقارنة بالأوّل والثاني اللذين يشكلان حدود الدلتا؛ لأنه ليس بعيداً عن رأس المصبّ الفانتيني يخرج فرعان إلى الشطر الداخلي من الدلتا. ويجاور المصب الفنتيني المصبّ الميند يسي، ثمّ يأتي المصبّ التانيسي وأخيراً

المصبّ البيلوسي. وهناك مصبّات أخرى بين هذه المصبات، مصبات تبدو كأنها وهمية، لكنّها أقلّ أهمّية. وللمصبات مداخل للسفن، بيد أنها غير مؤهلة لاستقبال سفن الشحن، بل سفن الدعم، لأنها مصبّات ضحلة ومستنقعية. ومع ذلك كان مصب كانوب يستخدم ميناء أساساً عندما تكون أخوار الإسكندرية مغلقة، كما ذكرت من قبل[66]. وبعد المصبّ البولبيتي تأتي رأس بحرية منخفضة ورملية تبرز بعيداً في عرض البحر؛ وهي تدعى أنغو- كيراس[67]. ثمّ يليها برج الحراسة بيرسيوس وسور الميلتوسيين، لأنّ الميلتوسيين رسوا هنا في زمن بساميتيخ (وقد عاش هذا في زمن كياكسار الميدي) في 30 سفينة في المصبّ البولبيتي، وفور نزولهم إلى البرّ حصّنوا القرية المذكورة سابقاً بسور، لكنّهم مع مرور الوقت صعدوا مع النهر حتّى نوم سايس، وهزموا مدينة إينار في معركة بحرية وأسّسوا ناوكراتيس إلى الأعلى قليلاً من سخيديا. وبعد سور الميلتوسيين إذا تقدمت نحو المصبّ السيبينيتي، تقترب من بحيرات تدعى إحداها بوطية، نسبة إلى مدينة بوط، كما تدنو أيضاً من مدينتي سيبينيت وسايس؛ وهذه الأخيرة هي عاصمة البلاد السفلى؛ ويعبدون فيها أثينا؛ ففي معبد هذه الإلهة دفن بساميتيخ. وعند بوط تقع مدينة هيرموبوليس على جزيرة؛ وفي بوط موْحى للاتونا[68].

19- وفي عمق البلاد، إلى الأعلى من المصبّ السيبينيتي والفاتنيتي، تقع كسويس، وهي جزيرة ومدينة في نوم سيبينيت. وهنا تقع هيرموبوليس، وليكوبوليس، ومينديس، حيث يعبدون بان، ومن الحيوانات يعبدون التيس؛ وبحسب بينداروس أنّ النساء هنا تعاشر التيوس.

مينديس التي عند الجرف البحري الشديد الانحدار،

قرن النيل الأقصى، حيث النساء

زوجات التيوس- تعاشرن التيوس

(*مقطع* 201، *بيويش*)

وعلى مقربة من ميندیس تقع أيضاً ديوسبوليس[69] وبحيراتها، وليونتوبوليس[70]؛ وعلى مسافة أبعد تقع مدينة بوسيريس في نوم بوسيريس، ومدينة كينوسبوليس[71]. وبحسب إيراتوسفين أنّ عادة طرد الغرباء سمة مشتركة بين البرابرة كلّهم، وكلّهم يتهم المصريين بهذه التهمة بسبب أساطير بوسيريس التي أُنشئت في نوم بوسيريس، لأن

كتّاب الأزمنة الحديثة أرادوا أن يوجّهوا إلى [سكّان] هذا المكان تهمه كاذبة تقول، إنهم بخلاء لا يطيقون الضيوف؛ مع أنني أقسم بزيوس، أنه لم يكن هناك في يوم من الأيام ملك أو تيران يدعى بوسيريس؛ ويقول أيضاً، إنهم يقتبسون دائماً قول الشاعر:

أأعود إلى مصر ثانية وأقطع كلّ تلك الطريق الطويلة المضنية.

(*الأوزيسا* IV، 483)

وقد ساهم مساهمة كبيرة في ظهور هذا الرأي وشيوعه نقص المرافئ في مصر، وكذلك حقيقة أنّ الميناء الموجودة عند فاروس، لم يكن دخولها متاحاً؛ لأنّ الرعاة قطّاع الطرق كانوا يحرسونها، ويهاجمون السفن التي كانت ترمي مراسيها هناك؛ ويضيف إيراتوسفين قائلاً، إنّ القرطاجيين كانوا يغرقون في البحر كلّ سفن الغرباء الذين كانوا يبحرون على مقربة من بلادهم نحو سردينيا أو أعمدة هرقل، وعليه فإن العدد الأكبر من القصص التي تروى عن البلاد الغربية لا تستحقّ أن يركن إليها؛ كما يقول أيضاً، إنّ الفرس كانوا يغدرون بالسفارات فيقودونها في طرقات جانبية تمتدّ في أماكن وعرة مسالكها صعبة.

20- ويجاور هذا النوم النوم الأثريبيسي، ومدينة أثريبيس، وكذلك نوم بروسوبيت، حيث تقع مدينة أفروديت. وتقع فوق المصبّ الميندیسي والمصبّ التانيسي بحيرة كبيرة، ويقع هناك أيضاً نوم ميندیس ونوم ليونتوبوليس، ومدينة أفروديت، ونوم ثاريبيس؛ ثمّ يأتي مصبّ تانيس الذي يدعوه آخرون سايس؛ وتقع عليه مدينة كبيرة هي مدينة تانيس.

21- وبين المصبّ التانيسي والمصبّ البيلوسي تقع بحيرة وتمتدّ من غير انقطاع مستنقعات كبيرة، وينتشر كثير من القرى. وحول بيلوسي نفسها تقع مستنقعات تدعى الآن الباراثرات[72]، والسبخات القذرة؛ وتقع القرية على بعد أكثر من 20 مرحلة عن البحر، ويبلغ امتداد محيط سورها 20 مرحلة؛ وقد أخذت هذه القرية اسمها من Pelos[73]، والسبخات القذرة. ومصر هنا أيضاً عصيّة وعرة، كما هي الحال من جهة مناطقها الشرقية القريبة من فينيقيا واليهودية، وكذلك من جهة العربية النبطية التي لها حدود مباشرة مع مصر؛ وثمّة طريق إلى مصر تمتدّ عبر هذه المناطق. والبلاد التي بين النيل والخليج العربي، هي العربية؛ وعلى أطرافها تقع بيلوسي، لكنّها كلّها خالية من السكّان ومسالكها وعرة عصية على الجيوش. ويمتدّ البرزخ الذي بين بيلوسي

والقسم الداخلي من الخليج عند هيرونبوليس[74] 1000 مرحلة، لكنّ بوسيدونيوس يرى أنه يمتدّ أقلّ من 1500 مرحلة؛ أضف إلى ذلك أنّ البرزخ خالٍ من المياه وتغطيه الرمال، وتعيش هنا كثرة من الزواحف التي تختبئ بين الرمال.

22- إذا أبحرت من سخيديا إلى ممفيس، فسوف ترى على الجهة اليمنى كثيراً من القرى التي تمتدّ حتّى بحيرة مارييا، وبينها القرية التي تدعى حبريا؛ أمّا على النهر فتقع هرموبوليس؛ ثمّ تأتي هينيكوبوليس[75]، ونوم هينيكوبوليس، يلي ذلك على التوالي موميفيس، ونوم موممفيس؛ وفي الحيّز الفاصل يمتدّ عدد من القنوات التي تقود إلى مريوط. ويعبد سكّان موممفيس أفروديت؛ ويقيمون هنا بقرة مقدّسة، على غرار ما هو حاصل في ممفيس إذ يقيمون فيها أبيس، وفي هليوبوليس مينيفيس. وتعدّ هذه الحيوانات هنا آلهة، ولا تعدّ الأخرى في أماكن أخرى آلهة (ففي كثير من الأماكن الأخرى، سواء في الدلتا أو خارجها يعتنون بثور أو بقرة)، مع أنها تعدّ مقدّسة.

23- وتقع إلى الأعلى من موممفيس بحيرتان قلويّتان تحتويان على نسبة عالية جدّاً من القلويات، ويقع هنا أيضاً نوم نيترويس. ويعبد السكّان هنا سارابيس، وسكّان هذه المنطقة وحدهم خلافاً لكلّ سكّان مصر، يقدّمون الشاة ذبيحة. وفي هذا النوم، وعلى مقربة تقع مدينة منيلايوس؛ وفي الدلتا على الجهة اليسرى، تقع ناوكراتيس على النهر، بينما تقع سايس على بعد سخينين عن النهر. وإلى الأعلى قليلاً من سايس يقع حرم أوزيريس، الذي دفن فيه كما يقولون، جثمان أوزيريس؛ لكنّ كثيرين يجادلون في هذا، خاصة سكّان فيلاّ التي فوق سيينا وإليفانتين؛ لأنهم يروون قصة أسطورية تقول، إنّ إيزيس حفرت قبوراً لأوزيريس في كثير من الأماكن (لكن جثمان أوزيريس مدفون في واحد منها فقط، ولا أحد يعرفه)؛ وقد فعلت إيزيس ذلك لتخفي الجثمان عن تيفون خوفاً من أن يأتي ويرميه خارج القبر.

24- هذا هو وصف البلاد من الإسكندرية حتّى رأس الدلتا. وبحسب أرتيميدور إنّ الإبحار صعوداً في النهر يشغل 28 سخيناً، أي 840 مرحلة، عادّاً أن السخين الواحد يساوي 30 مرحلة. وحينما أبحرت أنا بنفسي في نهر النيل، حدّدوا المسافة لي باستخدام مقاييس للسخين تختلف باختلاف الزمن، حتّى أنهم اعتمدوا قياساً يساوي فيه السخين الواحد 40 مرحلة أو أكثر، تبعاً للمكان. وفي خبره الذي تلا هذا الخبر، يقول أرتيميدور بوضوح، إن قياس السخين غير محدّد لدى المصريين، فمن ممفيس حتّى منطقة طيبة، كلّ سخين واحد يساوي 120 مرحلة، ومن منطقة

طيبة حتّى سيينا يساوي السخين نفسه 60 مرحلة؛ وإذا أبحرت من بيلوسي إلى رأس الدلتا هذه عينها فإن المسافة، كما يقول أرتيميدور 25 سخيناً، أي 750 مرحلة، إذا استخدمنا ذلك القياس عينه للسخين. والقناة الأولى، على حدّ قوله، إذا انطلقت من بيلوسي إلى الأمام، هي القناة عينها التي تملأ ما يسمّى البحيرات المستنقعية؛ وعدد هذه الأخيرة اثنتان واقعتان على يسار النهر الكبير فوق بيلوسي في العربية؛ ويتحدّث أرتيميدور عن بحيرات وقنوات أخرى في تلك المناطق نفسها، لكنّها موجودة خارج الدلتا. وثمّة قرب البحيرة الثانية نوم يدعى سيفرويت؛ ويرى أرتيميدور فيه واحداً من النومات العشرة الواقعة في الدلتا؛ وتصبّ في هذه المستنقعات نفسها قناتان أخريان.

25- وتوجد قناة أخرى تصبّ في البحر الأحمر وفي الخليج العربي قرب مدينة أرسينويا التي يسمّيها آخرون كليوباتريدا. وتجري هذه القناة عبر البحيرات التي تسمّى البحيرات المرّة التي كانت من قبل مرّة بالفعل، ولكنّ عندما شقّت القناة المذكورة تغيّر تركيب المياه فيها بسبب اختلاط مياه النهر فيها؛ وهي مليئة الآن بالأسماك والطيور المائية. وكان سيسوستريس قد حفر القناة في أوّل الأمر قبل حرب طروادا؛ ولكنّ بعضهم يزعم أن الذي قام بهذا العمل، هو ابن بساميتيخ(76)، الذي لم يكد يبدأ العمل فيها حتّى توفّي؛ وفيما بعد باشر العمل في شقّ القناة من جديد داريوس الأوّل الذي ورث مهمّة إنجاز هذا العمل. ولكنّه أوقف العمل الذي كان قد بلغ نهايته تقريباً، وقد دفعه إلى ذلك تصوّر خاطئ تماماً، إذ أقنعوه بأن مستوى البحر الأحمر أعلى من مصر، وإذا ما حفر البرزخ كلّه فإنّ البحر سيغرق مصر كلّها. ومع ذلك أنجز ملوك السلالة البطلمية(77) حفر البرزخ وجعلوا المضيق بمعبر مغلق، بحيث كان يمكن الإبحار حسب الرغبة ومن غير عائق إلى عرض البحر الخارجي والعودة إلى نقطة الانطلاق. وأنا كنت قد تحدّثت في الكتب الأولى من عملي هذا(78) عن مستوى مياه البحار.

26- وغير بعيد عن أرسينويا تقع هيرونبوليس وكليوباتريدا (في عمق الخليج العربي نحو مصر)، ثمّ تأتي موانئ وقرى، وعلى مقربة عدد من القنوات والبحيرات. ويقع هنا نوم فاغروريوبوليس ومدينة فاغروريوبوليس. وكانت بداية القناة التي تصبّ في البحر الأحمر تقع عند قرية فاكوسا التي تجاورها قرية فيلون. وعرض هذه القناة 100 ذراع، وعمقها كاف لسفن شحن كبيرة جدّاً، وهذه الأماكن تقع قرب رأس الدلتا.

27- كما يقع هنا نوم بوباست ومدينة بوباست؛ وإلى الأعلى من هذا النوم يقع نوم هليوبوليس. وتقع هليوبوليس في هذا النوم فوق هضبة عالية، وفيها معبد هليوس والثور منيفيس الذي يضعونه هنا في مكان مقدّس داخل سياج؛ ويعبدونه هناك بصفته إلهاً، مثله مثل أبيس في ممفيس. وتقع أمام الهضبة بحيرة تملؤها مياه القناة المجاورة. ولكنّ المدينة خالية الآن تماماً؛ فيها معبد قديم مبنيّ بأسلوب العمارة المصري، ويحافظ على كثير من شواهد جنون قمبيز واعتداءاته على المقدّسات، فقد أطعم بعض المعابد للنار، وأعمل السيف والحديد في الأخرى فهدمها، وأحرق المسلاّت من جميع جوانبها. وكانت هناك مسلّتان نجتا جزئياً من عربدة قمبيز، فنقلتا إلى روما، أمّا المسلاّت الأخرى فهي تقوم في المكان أو في طيبة، وهي ديوسبول الآن، ولا يزال بعض هذه المسلاّت يقف محترقاً من جميع جوانبه، وبعضها الآخر ملقى على الأرض.

28- إنّ مخطط بناء المعابد المصرية، هو الآتي: عند مدخل الحرم المقدّس أرضية مرصوفة بالحجارة عرضها حوالي بليفر واحد أو أقلّ، وطولها ثلاثة أو أربعة أضعاف عرضها، وأحياناً أكثر؛ وهي تدعى «دروموس»[79]، على حدّ قول كاليماخ:

إنه دروموس أنوبيس المقدّس.

وعلى امتداد الطول كلّه يقف نسقان من السفينكسات الحجرية، نسق على الجانب اليميني، ونسق على الجانب اليساري، والمسافة بين كلّ سفينكس وآخر 20 ذراعاً أو أكثر بقليل. ويلي السفينكسات مدخل كبير[80]، ثمّ إذا ما تقدّمت إلى الأمام، مدخل آخر، يليه ثالث؛ ولكنّ عدد المداخل والسفينكسات ليس محدّداً بدقّة: يختلف من معبد لآخر، مثله مثل طول الدروموس وعرضه. وبعد المدخل نصل إلى المعبد نفسه وبروناوسه[81] الكبير الرائع والحرم الذي يتناسب معه من حيث الحجم، بيد أنه لا يوجد فيه أيّ تمثال من التماثيل التي تشبه البشر في أقلّ تقدير، ولا يوجد هناك سوى تمثال لحيوان ما لا يقبله العقل. وعلى جانبي البروناوس يبرز إلى الأمام شكلان يدعونهما جناحين. وهذان عبارة عن جدارين ارتفاعهما واحد ومعهما معبد، وهما متباعد واحدهما عن الآخر في البداية مسافة أكبر بقليل من عرض قاعدة المعبد، وإذا تقدّمت بعد ذلك في الاتجاهات نفسها فإن المسافة ستكون 50 أو 60 ذراعاً؛ ويحتوي هذان الجداران على أشكال تماثيل كبيرة تشبه التماثيل التيرينية[82] والأعمال الفنية الإغريقية القديمة جدّاً. ويوجد هنا أيضاً ما يشبه منشأة أعمدتها كثيرة (كما في

ممفيس مثلاً) بنيت بذوق بربري، لأنه عدا عن أن الأعمدة عظيمة وكثيرة وتنتصب في كثير من الأنساق، فإن البناء يخلو من أيّ جاذبية جمالية كانت، ويبدو كأنه بني خبط عشواء.

29- وقد رأيت في هليوبوليس منازل كبيرة كان يعيش فيها كهنة، فالروايات تقول، إنّ هذه المدينة كانت في الأزمنة القديمة حيّ الكهنة الذين كانوا يشتغلون بالفلسفة وعلم الفلك، لكنّ هذه الأخوية اندثرت الآن، وأعمالها توقّفت. وأنا فعلاً لم أجد في هليوبوليس أيّ مشرف يقود مثل هذه الأعمال، وليس ثمّة سوى الكهنة الذين يقيمون طقوس تقديم الذبائح ويشرحون للغرباء مغزى الطقوس المقدّسة. وفي أثناء الجولة التي قام بها الوالي الروماني إيلوس غاللوس في مصر العليا، رافقه شخص إسكندريّ يدعى هيريمون كان يدّعي معرفة هذا النوع من الأشياء، بيد أنه كان مثار سخرية بصفته دعيّاً جاهلاً وحسب. بيد أنهم أرونا في هليوبوليس منازل الكهنة ومدرستيّ أفلاطون وإيفدوكس؛ وكان إيفدوكس قد جاء إلى هنا هو وأفلاطون، وبحسب بعض الكتّاب إنهما أقاما هنا 13 عاماً[83] مع الكهنة. والحقيقة أنّ هؤلاء الكهنة كانوا يتوفرون على مخزون كبير من المعلومات عن الظاهرات الفلكية، بيد أنّ هؤلاء كانوا أناساً كتومين وغير ميّالين لنقل معلوماتهم للآخرين، ولذلك مع مرور الوقت فقط استطاع أفلاطون وإيفدوكس أن يكسبا ودّ الكهنة وإقناعهم بأن ينقلوا إليهما بعض الموضوعات الأساسية في تعاليمهم؛ ومع ذلك أخفى البرابرة الجزء الأكبر من معارفهم. ولكنّ هؤلاء الناس علّموا أفلاطون وإيفدوكس اعتماد النهار والليل اللذين يجمعان أكثر من 365 يوماً ويملآن زمن العام «الفعلي»[84]. ولكنّ الإغريق لم يكونوا عندئذٍ على علم بالعام الحقيقي، كما لم يكونوا على معرفة بأشياء أخرى كثيرة، إلى أن تعلّمها فلكيو الأزمنة الحديثة على أيدي الذين ترجموا مدوّنات الكهنة المصريين إلى اللغة الإغريقية؛ ولا يزالون حتّى الآن يدرسون ابتكارات الكهنة المصريين، وكذلك ابتكارات الكلدانيين.

30- ومن هليوبوليس يبدأ النيل فوق الدلتا. وإذا أبحرت صعوداً مع النيل، فإن المناطق الواقعة على يمين الدلتا تدعى ليبيا، ومثلها أيضاً المناطق القريبة من الإسكندرية وبحيرة مريوط، بينما تدعى المناطق التي في الجانب الأيسر، العربية. وعلى هذا النحو فإن هليوبوليس تقع في العربية، بينما تقع مدينة كيركيسورا الواقعة على مقربة من مرصد إيفدوكس في ليبيا؛ وأمام هليوبوليس يرونك شيئاً ما يشبه برج

الحراسة (كالذي أمام كنيدس)، اتخذه إيفدوكس نقطة أجرى رصده لحركة بعض الأجرام السماوية بالنسبة إليها. وهذا النوم هو نوم ليتوبوليس. وإذا أبحرت صعوداً مع النهر أبعد إلى الأمام، فإنك تصل إلى بابل، وهو حصن منيع قويّ أعلنت فيه مجموعة ما من البابليين عصياناً، وانتزعوا من الملوك موافقة على بناء مستعمرة؛ وهذه المستعمرة هي الآن معسكر لواحد من الأفواج الثلاثة التي تحرس مصر. وتمتدّ من المعسكر حتّى نهر النيل سلسلة جبلية يرفعون عبرها الماء من النهر(85) مستخدمين عجلات غرف ومضخات لولبية؛ ويعمل هنا في [هذا] العمل 150 أسيراً مقيّدين بالأغلال. وتظهر الأهرامات(86) من هذا المكان بوضوح على الضفّة الأخرى لنهر النيل عند ممفيس التي تقع على مقربة منها.

31- وغير بعيد من هنا تقع ممفيس، مقرّ الملوك المصريين، لأنّ المسافة من الدلتا إليها 3 سخينات فقط. وفي ممفيس معابد، وقبل كلّ شيء معبد أبيس الذي يُدغم باوزيريس؛ فهنا يقيم الثور أبيس في أحد المعابد المقدّسة، وكانوا يعبدونه بصفته إلهاً، كما كنت قد قلت؛ وعلى مقدّمة رأسه وبعض أجزاء جسده الأخرى علامات بيضاء، أمّا باقي أجزاء جسده فهي سوداء اللون؛ فوفق هذه العلامات كانوا دائماً يختارون الثور المناسب لخلافة الثور الراحل. وأمام الحرم فناء فيه حرم آخر تقيم فيه والدة الثور المعبود. وإلى هذا الفناء يطلقون الثور في ساعة محدّدة ليعرض أمام الغرباء خاصة؛ ومع أنّ رؤيته ممكنة عبر النافذة، إلاّ أنهم يفضّلون عرضه في الخارج. وبعد أن يتحرّك الثور في المكان قليلاً، يعيدونه إلى مربط خاص. وعلى هذا النحو يقع هنا معبد أبيس، على مقربة من الهيفيستوس الذي يعدّ هو نفسه منشأة بديعة، إن من حيث حجم المعبد، أو من حيث الوجوه الأخرى. وأمام المعبد في الدروموس يقف تمثال مهول نحت من كتلة حجرية واحدة؛ وقد شاعت عندهم عادة إقامة عروض قتال الثيران على أرض هذا الدروموس، وكانت الثيران التي تشارك في هذه العروض تربّى لهذا الغرض تحديداً؛ مثلها في هذا مثل الخيل التي تربّى لأغراض معيّنة؛ فقد كان الثور الذي يطلق من رباطه يندفع إلى القتال من فوره، والذي يفوز يمنح مكافأة. وفي ممفيس معبد لأفروديت أيضاً، ويعدّ المصريون هذه الإلهة إلهة إغريقية، لكنّ بعضهم يزعم أن هذا المعبد هو معبد سيلينا.

32- ويوجد في ممفيس سارابيوم أيضاً، وهو يقع في مكان كثير الرمال إلى حدّ أنّ الرياح تشكّل هناك هضاباً. والسفينكسات التي رأيتها هناك كانت الرمال

تغطي بعضها حتّى الـرأس وبعضـها الآخـر حتّـى الوسـط؛ ويسـتدلّ مـن هـذا علـى الخطـر الشديد الذي يتهدد عابر السبيل إذا ما أدركته العاصفة الرملية هنـاك وهـو في طريقـة إلى المعبـد. ومدينـة ممفـيس مدينـة كـبيرة فيهـا كثافـة سـكّانية عاليـة، وهـي تشـغل المكانة الثانية بعد الإسكندرية بسكّانها الذين ينتمون إلى خليط من الأعـراق، مثلـهم في هـذا مثـل الـذين يعيشـون في الإسـكندرية. وثمّـة بحـيرة هنـاك تتبسـط أمـام المدينـة والقصور التي ترقد الآن أطلالاً خاوية؛ وكانت هـذه قـد شـيّدت علـى مرتفـع وتتصـل إلى القاعدة السفلية للمدينة؛ وتجاور المدينة حديقة وبحيرة.

33- وإذ نبتعد عن المدينة 40 مرحلة نصل إلى نجد جبلي يقوم فوقه كثير من الأهرامات - مقابر الملوك؛ ويشتهر منها خاصة الهرمان 3 و 2 اللذان يعدّان من عجائب الدنيا السبع، فارتفاعهما يبلغ المرحلة، وشكلهما مربّع، أمّا ارتفاعهما فأكبر قليلاً من طول كلّ ضلع؛ ولكنّ أحدهما[87] أكبر قليلاً من الآخر[88]. وثمّة في الأعلى، تقريباً في الوسط بين الأضلاع، يقوم حجر يمكن انتزاعه؛ وإذا ما رفعت هـذا الحجـر تجد معبراً حلزونياً يؤدّي إلى المقبرة. وتقع هذه الأهرامات واحدها قرب الآخر على مستوى واحد تقريباً؛ ولكن إلى الأبعد قليلاً يقع الهرم الثالث على أعلى علوّ في هذا النجد الجبلي، بيد أنه أصغر بكثير من الهرمين الأولين، مع أنهم استخدموا لبنائه موارد أكثر بكثير، لأنه مبني من أساسه حتّى منتصفه تقريباً بالحجر الأسود الذي يصنعون منه الأجران، وقد أتوا به من بعيد، من جبال إثيوبيا؛ ولأنه حجر صلب وتصنيعه صعب، كانت كلفة البناء عالية جدّاً. ويدعى هذا الهرم «ضريح العشيقة»؛ فقد بناه عشاق هذه البغي التي تدعوها سابفو[89]، الشاعرة الماجنة باسم دوريخا عشيقة أخيها كاراكاس الذي كان ينقل نبيذ ليسبوس ليبيعه في ناوكراتيس[90]؛ بيد أنّ آخرون يدعونها باسم رودوبيس[91]. ويروون قصّة مثيولوجية تقول، إنه بينما كانت رودوبيس تغتسل انقض صقر واختطف فردة حذائها من بين يديّ خادمتها وحملها إلى ممفيس؛ وفي الوقت الذي كان الملك يعقد فيه محكمته ويقضي بين الناس في الهواء الطلق، حلّق الصقر فوق رأسه ورمى بفردة الحذاء على ركبتيه. فذهل الملك لروعة فردة الحذاء وغرابة الحدث وأرسل أناساً في الاتجاهات كلّها بحثاً عن المرأة صاحبة فردة الحذاء هذه. وعندما عثروا عليها في ناوكراتيس وجاؤوا بها إلى ممفيس، غدت زوجة للملك؛ وبعد وفاتها استحقت الملكة أن تدفن في الضريح المذكور.

34- ونحن ينبغي علينا ألاّ نغفل واحدة من الظاهرات المدهشة التي قدّر لي أن

ألاحظها بأمّ العين عند الإهرامات: أمام الأهرامات عدد من كومات الكسرات الحجرية؛ بينها كسرات تشبه العدس من حيث الشكل والحجم؛ وفي بعض الكومات شيءٌ ما يشبه البذور التي تبدو كأنها نصف مقشورة. ويقال، إنّ هذه بقايا متحجّرة من طعام العمال، ولا أظنّ أن هذا الزعم يفتقر إلى المشروعية. ففي وطني[92] هضبة متطاولة الشكل تقع في سهل من السهول؛ وهذه الهضبة مليئة بالحصى المسامية التي تشبه حبوب العدس؛ والحصى البحرية منها والنهرية تمثل صعوبة لدى محاولة تفسير منشئها، ففي الوقت الذي يمكن فيه أن نفسّر منشأ هذه الأخيرة بالحركة التي تنتج عن جريان مياه النهر، إلاّ أن تفسير منشأ الظاهرة الثانية يمثّل صعوبة حقيقية. وأنا كنت قد أشرت في مكان آخر[93]، إلى أنه غير بعيد عن مقالع الحجارة التي بنيت الأهرامات من حجارتها، وهي تقع على الجانب الآخر من النهر قبالة الأهرامات، في العربية، يقع جبل صخري يدعى «الطروادي»؛ وتقع عند سفح هذا الجبل كهوف وقرية تدعى طروادا (قرب هذه الكهوف)؛ وهذه القرية هي مستوطنة الأسرى الطرواديين الذين رافقوا منيلايوس، لكنّهم استقرّوا هناك[94].

35- وبعد ممفيس تقع مدينة أكانثوس الواقعة في ليبيا أيضاً، يليها حرم أوزيريس ودغل أكانثوس[95] الطيبي الذي يستخرجون منه الصمغ[96]. ثمّ يأتي نوم أفروديتوبوليس، فمدينة في العربية تحمل الاسم عينه، وهنا في هذه المدينة مقرٌ لبقرة بيضاء مقدّسة يعتنون بها. ويأتي بعد ذلك نوم هيراقليا الواقع على جزيرة كبيرة، حيث على الجانب اليميني تمتدّ قناة تقود إلى نوم أرسينويا في ليبيا، وبذلك يكون لهذه القناة مصبّان يقع بينهما شطر من الجزيرة. ويعدّ هذا النوم الأفضل بين النومات الأخرى كلّها من حيث منظره وخصوبته، كما من حيث نوعية حراثة الأرض، فهو وحده المزروع بشجر الزيتون، وشجره كبير وناضج ويعطي ثمراً ممتازاً، ينتج بدوره زيتاً جيّداً إذا ما جمع المحصول بحرص. ولكن بما أن السكّان يستهترون بهذا (والحقيقة أنهم ينتجون كميات كبيرة من الزيت)، لذلك تفوح من زيتهم رائحة خبيثة (لا وجود لشجر الزيتون في باقي أنحاء مصر، ما عدا ما يزرعونه منها في البساتين الواقعة في ضواحي الإسكندرية، وأشجار تلك البساتين كبيرة بما يكفي لتعطي ثمراً، لكنّه لا يعطي زيتاً). كما ينتج هذا النوم كميّة كبيرة من النبيذ، والأقماح، والبقول، وكثيراً من المحاصيل الزراعية الأخرى. وتقع فيه بحيرة مدهشة تدعى بحيرة ميريدا، اتساعها كاتساع البحر المفتوح، ولون مياهها كلون مياهه؛ وشكل شواطئها كشكل

شواطئه، وعليه يمكن أن نستخلص الافتراض نفسه بخصوص هذه المنطقة والمنطقة الواقعة عند معبد آمون (والحقيقة أن آمون ونوم هيراقليا لا يبعد واحدهما عن الآخر، وعن باريتونيوس مسافة كبيرة)؛ فهذا المعبد، كما تشير كثير من المؤشرات، كان يقع في الأزمنة الماضية على البحر، كما كانت هذه المنطقة بدورها منطقة ساحلية أيضاً. لقد كانت مصر السفلى والمنطقة التي تمتدّ حتّى بحيرة سيربونيدس بحراً، وربّما بحراً متصلاً مع البحر الأحمر عند هيرونوبوليس وخليج إيلانا.

36- وأنا كنت قد تحدّثت بالتفصيل عن هذه المادّة في الكتاب الأوّل من «جغرافيتي»[97]، ولكن ينبغي عليّ أن أعود الآن لأذكّر ثانية باختصار بما فعلته الطبيعة وما فعلته العناية الإلهية في الوقت نفسه، لأنهما تفضيان إلى هدف واحد. ويتلخص ما فعلته الطبيعة في أنّ كلّ شيء يسعى إلى نقطة واحدة، هي مركز كلّ شيء، ليشكل حولها كرة؛ والجسم الأكثر كثافة ومركزية، هو الأرض؛ يليها الماء، أقلّ كثافة؛ وهذه وتلك عبارة عن كرة؛ الكرة الأولى كثيفة، والأخيرة فارغة لأنها تحتوي الأرض في داخلها. أمّا عمل العناية الإلهية فيتلخص في كونها شيئاً ما يشبه المزخرف الذي يزخرف الأشياء، وخالق مخلوقات لا عدّ لها، فقد قررت أن تصنع أوّل ما تصنع من مخلوقاتها، الكائنات الحيّة التي تتفوّق كثيراً على كلّ ما عداها، والأكثر جبروتاً بين هذه الأخيرة هم الآلهة والناس الذين من أجلهم صنع كلّ شيء آخر. وعلى هذا النحو كرّست العناية الإلهية السماء للآلهة، والأرض للناس، والسماء والأرض هما أقصى طرفي جزأيّ الكون، لأنّ أقصى نقطتي الكرة، هما المركز والسطح[98]. ولكن بما أنّ المياه تحيط بالأرض والإنسان الذي يعدّ حيواناً غير مائي، بل حيواناً يعيش على اليابسة، ويحتاج الهواء وكثيراً من الضوء، فقد صنعت العناية الإلهية على الأرض كثيراً من المرتفعات والمنخفضات، وتحتوي هذه الأخيرة المياه كلّها أو الجزء الأعظم منها الذي يخفي الأرض تحته؛ بينما تبرز الأرض في الأولى وتخفي المياه تحتها، ما عدا الكمّ الذي يحتاجه الجنس البشري والحيوانات والنباتات التي تحيط به. ولكن بما أنّ الأشياء كلّها في حال حركة وتطرأُ عليها تغيّرات دائمة (وإلاّ لاستحال توجيه ذلك النوع من الأشياء في الكون، الكثيرة العدد والمهولة الحجم)، وهذا ما يبيح أوّلاً، ألاّ تبقى الأرض على هذا الشكل إلى الأبد، محافظة على أبعادها هذه أو تلك من غير أن تضيف أيّ شيء إلى حجمها أو لا تتقلّص؛ ثانياً، وهذا ينسحب على المياه أيضاً؛ ثالثاً، ألاّ تستقرّ هذه ولا تلك في مكان محدّد بعينه، لاسيما أنّ تحوّل

واحدتهما إلى الأخرى والعكس يحصل بأكثر الأشكال طبيعية وببساطة شديدة؛ ولكن على النحو الذي يتحوّل فيه كثير من الأرض إلى ماء، كذلك يتحوّل كمّ كبير من الماء إلى يابسة بالطريقة عينها، كما يحصل على الأرض التي تتعرّض لكثير من التغيّرات؛ لأنّ هناك أرضاً رخوة، وأرضاً صلبة أو صخرية، أو تحتوي على فلزات الحديد، وما إلى ذلك. والأمر نفسه ينسحب على خاصيات السوائل: هذا مالح، والآخر عذب وصالح للشرب والثالث يحتوي على عقاقير، منها ما يشفي ومنها ما يميت، والرابع حارّ أو بارد. وعليه ما الغرابة إذا ما كانت بعض أجزاء الأرض المسكونة الآن مغمورة بالبحر في أزمنة مضت، أو ما إذا كانت بحار اليوم مسكونة في أزمنة خلت؟ وعلى هذا الغرار حصل أن جفّت ينابيع بعد أن كانت تهدر بالماء، وانبجست أخرى لم يكن لها قبل ذلك وجود على سطح الأرض، وهذا نفسه حصل لأنهار وبحيرات؛ وعلى هذا النحو عينه تحوّلت جبال إلى سهول وسهول إلى جبال. وأنا كنت قد عالجت هذا الموضوع بالتفصيل من قبل[99]، وما قيل فيه الآن يكفي.

37- وعلى أيّ حال فإن بحيرة ميريدا تستطيع بفضل اتساعها وعمقها أن تتحمّل فيضان النيل في مواسمه من غير أن تغمر الأماكن السكنية والمزروعات؛ ولدى انخفاض مستوى الماء في النهر، تعيد له الفائض عبر القناة نفسها عند كلّ مصبّ من مصبّيه، فالبحيرة نفسها والقناة قادرتان على حفظ الباقي من الماء لاستخدامه في الريّ. وبصرف النظر عن تسمية هذه الظاهرات بنشاط الطبيعة، إلاّ أنّ عيون خزانات تقع عند كلّ مصبّ من مصبّي القناة بمساعدتها يقيس الميكانيكيون[100] نقص المياه وزيادتها. وإضافة إلى ذلك ثمّة في هذا النوم لابيرينتيوم، وهي منشأة يمكن مقارنتها بالأهرامات، وإلى جانبها ضريح الملك الذي بنى اللابيرينتيوم[101]. وعند مدخل القناة الأولى، إذا ما تقدّمت 30 أو 40 مرحلة إلى الأمام، تصل إلى مكان منبسط له شكل المعيّن تقع فيه قرية وقصر كبير يتألّف من كثير من الحجر التي يساوي عددها عدد النومات التي كانت في مصر قديماً[102]؛ لأنّ هناك كثيراً من القاعات التي تحيط بها أعمدة يجاور واحدها الآخر مباشرة؛ وتتوضّع هذه الأعمدة كلّها في صف واحد على طول جدار واحد يساوي طوله طول الجدار والقاعات التي أمامه؛ وتقع الطرقات التي تقود إلى القصر قبالة الجدار مباشرة. ويقع أمام مداخل القاعات كثير من القناطر الطويلة المغلقة التي تمتدّ بينها طرقات متعرّجة، ولذلك فإن أيّ غريب سيعجز عن إيجاد طريقه إلى المخرج هنا من غير دليل. وما يثير الدهشة أنّ سقف كلّ مخدع هنا يتألّف

من حجر واحد عظيم الحجم، ولا وجود فيه لأيّ أخشاب أو أيّ مادّة أخرى. وإذ تصعد إلى سقف علوّه غير كبير، لأنّ اللابيرينتيوم يتألّف من طابق واحد، يمكنك أن ترى سهلاً صخرياً يتكوّن من صخور بالحجم الكبير نفسه؛ وإذا ما هبطت من هنا مرّة أخرى إلى القاعات يمكنك أن تلاحظ أنها تتوضّع في نسق وتستقرّ على 27 عموداً؛ وجدرانها مبنية بدورها من حجارة ليست أقلّ حجماً. وفي آخر هذا البناء الذي يشغل حيّزاً يتعدّى المرحلة، يقع ضريح هو عبارة عن هرم مربّع كلّ ضلع من أضلاعه عرضها بليفر واحد، وارتفاع الأضلاع الأربع متساو. واسم المدفون هناك إيماندس[103]. ويقال، إنّ بناء هذا العدد الكبير من القاعات اقتضاه تقليد كان يقضي باجتماع النومات كلّها هنا بحسب أهمية كلّ منها مع كهنته وكاهناته لإقامة طقوس تقديم الذبائح، والتقدمات للآلهة، والبتّ في الدعاوى المتعلّقة بأهمّ المسائل. وقد كرّست لكلّ نوم قاعة خاصة به.

38- وإذا ما أبحرنا بالقرب من هذا البناء، فستلقانا على بعد مئة مرحلة مدينة أرسينويا. وكانت هذه المدينة تدعى من قبل مدينة التمساح. فعبادة التمساح كانت متطوّرة كثيراً هنا؛ ولديهم حيوان مقدّس واحد من هذه الحيوانات، يروّضونه ويضعونه على حدة في بحيرة. ويدعى هذا التمساح عندهم سوخ. ويطعمونه الخبز، واللحم، ويسقونه النبيذ؛ ويأتي الغرباء بهذه المأكولات دائماً معهم عندما يحضرون إلى هنا ليتأمّلوا هذا الحيوان المقدّس. لقد كان مضيفنا واحداً من كبار الموظفين، وهو الذي كرّسنا هناك في المسرحية الدينية، إذ جاء معنا إلى البحيرة حاملاً معه رغيفاً وقطعة لحم مشوية ودورقاً من النبيذ المخلوط بالعسل. ولمّا وصلنا وجدنا التمساح مستلقياً على شاطئ البحيرة. وحينما دنا الكهنة من الحيوان، فتح أحدهم شدقه ودسّ الآخر الرغيف هناك، ثمّ اتبع الرغيف باللحمة، وبعد ذلك سكب خليط النبيذ والعسل. وعندئذٍ قفز الحيوان في البحيرة وسبح إلى الشاطئ الآخر. ولكن حينما اقترب غريب آخر، وكان يحمل معه أيضاً تقدمة من بواكير الغلال، أخذ الكهنة التقدمات منه؛ واتّجهوا جرياً حول البحيرة، ولمّا وجدوا التمساح، قدّموا له التقدمات بالطريقة نفسها.

39- بعد نوم أرسينويا ونوم هيراقليا، تأتي هيراقليبوليس، حيث على الضدّ من سكّان أرسينويا، يعبدون النمس؛ فعند الأرسينويين شاعت عبادة التمساح، ولذلك تمتلئ القناة عندهم وبحيرة ميريدا بالتماسيح (لأنهم يرون في التماسيح كائنات مقدّسة فيرأفون بها ويبقون عليها)، أمّا الهيراقليبوليسيون فعلى الضدّ، إذ يعبدون النمس، وهو

العدوّ اللدود للتماسيح والثعابين إذ يدمّر بيوض هذه الأخيرة ويقتلها هي نفسها متخذاً من الأوحال والقاذورات درعاً يحتمي بها؛ فيهيل النمس الوحل على نفسه ثمّ يستلقي في الشمس ليجفّ، وفي اللحظة المناسبة ينقضّ على الثعبان فيمسك به من رأسه أو من ذيله، ويجرّه إلى النهر حيث يفتك به؛ ولكنّ النمس يحاذر التمساح عندما يفتح هذا شدقه وهو مستلق ليأخذ حاجته من أشعة الشمس؛ فيزحف متسلّلاً عبر الشدق المفتوحة ليفتك بأحشاء التمساح وبطنه ثمّ يزحف خارجاً من الجثة الهامدة.

40- ويأتي بعد ذلك نوم كينوبوليس ومدينة كينوبوليس[104]، حيث يعبدون أنوبيس وجرى عندهم تقليد عبادة الكلاب وطقس إطعامها المقدّس. وعلى الضفّة الأخرى من النهر تقع مدينة أوكسيرينخ والنوم الذي يحمل الاسم عينه. ويعبد السكّان هنا الأوكسيرينخ[105]؛ وعندهم له معبد؛ لكنّ عبادة هذا السمك مشتركة وشائعة عند المصريين كلّهم. والحقيقة أن عبادة عدد من الحيوانات شائعة كعبادة مشتركة عند المصريين كلّهم؛ فمن الحيوانات البرّية يعبدون الثور، والكلب، والهرّ؛ ويعبدون من الطيور الحدأة وأبي منجل؛ ومن الأسماك عبدوا ذات الحراشف والحفّار؛ أمّا الحيوانات الأخرى فقد كانت عباداتها محلّية، بصرف النظر عن عبادات الآخرين، فالسايسيون مثلاً، وكذلك الطيبيّون يعبدون الشاة؛ ويعبد سكّان لاتوبوليس نوعاً من أسماك النيل يدعى لاتوس[106]؛ ويعبد الليكوبوليسيون ابن آوى[107]، والهيرموبوليسيون الكينوليثالوس[108]، ويعبد البابليون الذين كانوا يعيشون قرب ممفيس القرد كيبوس[109] (والكيبوس كائن وجهه يشبه الساتيروس، وهو فيما تبقى كائن وسط بين الكلب والدبّ؛ يعيش في إثيوبيا)؛ ويعبد الطيبيون الصقر، والليونتوبوليسيون الأسد، والمينديسيون المعزاة والتيس، والإفريبيتيون الذبابة[110]، أمّا المصريون الآخرون فيعبدون حيوانات أخرى؛ ولكنّهم يسوقون أسباباً مختلفة لعباداتهم هذه.

41- تلي ذلك نقطة حراسة هيرموبوليس الحدودية، وهي شيء ما يشبه مركز جباية الرسوم عن البضائع الواردة إلى طيبة عبر النهر؛ وهنا يبدأ حساب السخينات التي تحتوي 60 مرحلة حتّى سيينا وإليفانتين. ثمّ تأتي نقطة حراسة طيبة الحدودية وقناة تقود إلى تانيس، وبعدها إلى ليكوبوليس، وأفروديتوبوليس، وبانوبوليس، والمستوطنة القديمة للنسّاجين والحجّارين.

42- وتقع بعد ذلك بطليموسيا التي تعدّ أكبر مدن منطقة طيبة، وهي لا تقلّ عن ممفيس حجماً، وفيها بنية حكومية على النمط الإغريقي. وتقع فوق هذه المدينة

مدينة أبيدوس التي يقوم فيها ممنونيوس، وهو قصر ملكيّ، عمارته رائعة، ومبنيّ كلّه من الحجارة وفق نمط اللابيرينتيوم الذي كنت قد وصفته، مع أنّه ليس معقّداً مثله؛ وثمّة في عمق ممنونيوس ينبوع يهبطون إليه عبر ممرّات مقنطرة حفرت تحت الأرض في صخرة واحدة، وهي ممرات عظيمة الحجم بديعة البناء. وتوجد هناك قناة شقت ومدّت إلى هنا من النهر الكبير. ويقوم عند القناة دغل للأكانثيين المصريين الذين كرّسوا الدغل لأبوللون. ويبدو أنّ أبيدوس كانت في يوم ما مدينة كبيرة شغلت المكانة الثانية بعد طيبة؛ أمّا الآن فهي قرية صغيرة. وعلى وجه العموم إذا كان صحيحاً ما يقال إنّ المصريين يدعون ممنون إيسمانديس[111]، فإن اللابيرينتيوم يمكن أن يكون ممنونيوس ومن عمل المعماري نفسه الذي بنى ممنونيوس أبيدوس وطيبة؛ فبحسب الرويات، إنّ في طيبة ممنونيوسات ما. وتقع قبالة أبيدوس واحدة من واحات ليبيا الثلاث التي أتينا على ذكرها سابقاً، والمسافة بينها وبين أبيدوس مسير تسعة أيام في الصحراء؛ وهذه الواحة عبارة عن قرية غنية بالمياه والنبيذ، كما تنتج غلالاً أخرى بكميات وافية. وتقع الواحة الثانية قرب بحيرة ميريدا؛ والواحة الثالثة هي تلك التي على مقربة من موحى آمون. وهذه القرى الثلاث تستحقّ الذكر أيضاً.

43- ومع أنّي تحدّثت كثيراً عن آمون[112]، إلاّ أنني أرغب في أن أزيد الآتي. لقد كان فنّ التنبّؤ خاصة المتنبّئين، يحظون بإجلال وتبجيل كبيرين لدى القدماء؛ أمّا الآن فالسائد هو ازدراؤهم، لأنّ الرومان يكتفون الآن بنبوءات سيفيلاّ، والتكهنات التيرينية بأحشاء الحيوانات، وطيران الطيور، والآيات الفلكية. ولذلك كاد موحى آمون أن يخبو تماماً، بينما كان يحظى فيما مضى من الأزمنة بمجد عظيم. ويبرهن على صحّة هذا بوضوح لا لبس فيه، الكتّاب الذين وصفوا مآثر الإسكندر؛ وعلى الرّغم من أنّ هؤلاء أضافوا كثيراً من التملّق، إلاّ أنهم مع ذلك نقلوا ما يستحقّ الثقة. فيقول كاليسفين، إن التعطّش إلى المجد دفع بالإسكندر إلى أن يصعد في نهر النيل إلى الموحى، لأنه كان قد سمع أنّ بيرسيوس وهرقل كانا قد قاما في الأزمنة الغابرة بمثل هذه الرحلة. لقد انطلق الإسكندر من باريتونيوس ووقع في منطقة الرياح الجنوبية، لكنّه كان مرغماً على أن يواصل طريقه التي ضلّها بعد ذلك بسبب سحب الرمال الكثيفة التي أثارتها الرياح؛ ولم ينقذه من الهلاك سوى هطول أمطار غزيرة وغرابين أرشداه إلى الطريق. والحقيقة أن هذه القصة ليست سوى تملّق خالص، مثلها مثل القصة التالية التي تقول، إنّ الكهنة لم يأذنوا إلاّ للملك أن يدخل المعبد بثيابه

المعتادة؛ بينما كان على الآخرين أن يبدّلوا ملابسهم ويستمعوا إلى ما يقوله المتنبّئ وهم خارج المعبد، ولم يسمح إلاّ للإسكندر وحده أن يستمع إليه وهو داخل المعبد. ولم تكن إجابات المتنبّئ تنقل بالكلمات، كما هي الحال في دلفي وعند البرانهيدس[113]، إنّما أكثرها بإيماءة الرأس والإشارات، كما عند هوميروس:

بإيماءة من حاجبيه الأسودين، أعلن زيوس،

(*الإلياذا* I، 528)

ولكنّ المتنبّئ أخذ على عاتقه في غضون ذلك أن يؤدّي دور زيوس. وقال للملك بعبارات واضحة، إنه ابن زيوس. وقد أضاف كالليسفين إلى هذه القصة، كما يليق بالشّاعر التراجيدي، ما يلي: بعد أن غادر أبوللون موحى البرانهيدس، منذ أن نهب البرانهيدس المعبد (وكان هؤلاء قد أخذوا جانب الفرس في عهد كسيراكس)[114]، جفّ الينبوع؛ ولكنّ المياه عادت وظهرت فيه من جديد مع وصول الإسكندر إلى هنا، وليس هذا وحسب، بل حمل سفراء ميلتوس إلى ممفيس كثيراً من نبوءات الموحى ذات الصلة بمولد الإسكندر من زيوس، والانتصار الذي ينتظره عند أربيل، ونهاية داريوس، ومحاولات العصيان في لاكيديمون. ويقول كالليسفين إن اثينايدس الإرثرية[115]، تنبأت بدورها عن المنشأ الإلهي للإسكندر، فبحسب قوله، إنّ هذه المتنبّئة كانت تشبه سيفيلاّ الإرثرية القديمة. إن هذه كانت قصص المؤرّخين.

44- وفي أبيدوس يعبدون أوزيريس. ولا يسمحون للمنشد، وعازف الناي، والقيثارة أن يبدأ الطقوس على شرف الإله في معبد أوزيريس، كما هو معتاد لدى إقامة شعائر خدمة الآلهة الآخرين. وبعد أبيدوس تأتي ديوسبوليس الصغرى، ثمّ مدينة تينتيرا. وعلى الضدّ من باقي المصريين، يزدري السكّان هنا التمساح ازدراء خاصاً، فهم يبغضونه أكثر من أيّ حيوان آخر. وعلى الرغم من أنّ المصريين الآخرين يعرفون أنّ التمساح حيوان شرير، كما يعرفون الأذى الذي يمكن أن يتسبب به للإنسان، إلاّ أنهم يعبدونه ويمتنعون عن إزعاجه؛ أمّا سكّان تينتيرا فإنهم يطاردونه في كلّ مكان ويقتلونه. ويزعم بعضهم أنه على النحو الذي يكره فيه البسيليون[116] الذين يعيشون قرب قورينائية، الزواحف «كرها»[117] طبيعياً، كذلك لدى التينيتريين «مناعة» ضدّ التماسيح، فهم لا يعانون منها قط، بل يغوصون في مياه النهر من غير وجل ويعبرون بينها، وهو ما لا يجرؤ أيّ من الآخرين على فعله. فسكّان تينتيرا رافقوا التماسيح إلى

روما عندما نقلوها إلى هناك لعرضها في الاحتفالات الشعبية. ولدى بناء حوض وشيء ما يشبه السقف فوق أحد جانبيه، حتّى إذا خرجت الحيوانات من الماء تستطيع أن تتشمّس، كان هؤلاء الناس يغوصون مع بعضهم في الماء فيسحبون التماسيح بالشبكة إلى المشمسة ليراها المشاهدون، أو يسحبونها إلى الوراء لتدخل الحوض. لقد شاعت عند هؤلاء عبادة أفروديت. وخلف معبد أفروديت يقع حرم إيزيس؛ ثمّ تقع التيفونات وقناة تقود إلى كوبتوس، وهي مدينة مشتركة للمصريين والعرب.

45- ويبدأ من هنا البرزخ الذي يصل إلى البحر الأحمر قرب مدينة برينيقي. ومع أنّ المدينة ليس فيها موانئ، لكنّ موقع البرزخ الملائم جعله يمتلك نُزُلاً جيّدة. ويقال، إنّ فيلاديلف كان أوّل من شقّ مع قواته هذه الطريق في هذه المنطقة القاحلة، وبنى عليها محطّات تبدو كأنها مهيأة لاستقبال التجار والجمال التي تحمل بضائعهم؛ وقد فعل فيلاديلف هذا لأنّ البحر الأحمر ليس ملائماً للملاحة، خاصة بالنسبة لأولئك الذين يبحرون من منخفضه. ويتّضح من التجربة أنّ فكرة فيلاديلف كانت ذات منفعة عظيمة، ففي وقتنا الراهن تنقل البضائع الهندية والعربية وكذلك الإثيوبية كلّها، التي تأتي عبر الخليج العربي، إلى كوبتوس التي تعدّ بمثابة ميناء مثل هذه البضائع. وعلى مقربة من برينيقي تقع مدينة ميوس - هورموس التي تضمّ محطة شراعية للبحارة، وغير بعيد عن كوبتوس تقع مدينة تدعى أبوللونوبوليس، وعلى هذا النحو قامت على كلّ جانب من جانبي البرزخ مدينتان تحدّدان حدود كلّ طرف من أطرافه. ولكوبتوس وميوس- هورموس في وقتنا الراهن سمعة طيبة، والناس تزورهما دائماً. وفيما مضى كان تجار قوافل الجمال لا يعبرون هنا إلاّ ليلاً، إذ كانوا يحدّدون اتجاه طريقهم بالنجوم؛ ومثلهم مثل البحارة كان هؤلاء يحملون الماء معهم؛ أمّا الآن فقد حفروا هنا آباراً عميقة، وبنوا أحواضاً خاصة لجمع ماء المطر، مع أنّ هذا الأخير لا يكفي. وتستغرق الطريق إلى هناك 6 أو 7 أيام[118]. كما توجد في هذا البرزخ مناجم الزمرّد[119] وسواه من الحجارة الكريمة الأخرى التي يحفر العرب لاستخراجها ممرات جوفية عميقة.

46- بعد أبوللونوبوليس تقع طيبة[120] (تدعى الآن ديوسبوليس):

المدينة التي فيها مئة بوابة، يخرج من كلّ منها مئتا
مقاتل في مركباتهم وعلى خيولهم السريعة.

(*الإلياذا* IX، 383)

هذا ما يقوله هوميروس، كما يذكر ثراء طيبة فيقول:

... أو طيبة المصريين،

المدينة التي لا حصر لثرواتها المكنوزة في بيوت سكّانها.

(الإلياذا IX، 381)

كما ينقل كتّاب آخرون قصصاً أخرى على هذا المنوال، عادّين طيبة عاصمة مصر. وحتى في أيامنا هذه يكشفون عن بقايا هذه المدينة على امتداد يصل إلى 80 مرحلة طولاً[121]. فهناك كثير من المعابد؛ لكنّ قمبيز دمّر العدد الأكبر منها. والمدينة الآن عبارة عن مجموعة قرى تقع التي تطوّق منها المدينة نفسها في العربية، وتقع الأخرى على الضفّة الأخرى للنهر حيث كان يقوم ممنونيوس. ومن التمثالين المهولين المصنوع كلّ منهما من حجر واحد، واللذين كانا يقومان هنا واحدهما قرب الآخر، لم يبق سوى تمثال واحد والأجزاء العليا من الآخر ابتداء من الوركين، أمّا الباقي فقد دمّره زلزال، كما يقولون. وثمّة اعتقاد هنا مفاده، أن أجزاء التمثال المتبقية على العرش أطلقت مرّة في كلّ يوم صوتاً كأنه صوت ضربة خفيفة. وعندما كنت في تلك الأماكن مع إيليوس غاللوس في حاشية كبيرة، سمعت هذا الصوت بأذني عند الساعة الواحدة[122]؛ بيد أنني لا أستطيع أن أؤكّد بدقّة ما إذا كان الصوت قد انطلق من المنصّة أم من التمثال نفسه، أم أطلقه عن سابق قصد أحد الموجودين حول المنصة وعلى مقربة منها. ولأنّ سبب هذه الظاهرة مبهم يمكننا أن نتوقّع أي توقّع كان، ما عدا أن يكون الصوت صادراً عن حجارة متوضّعة على هذا النحو. وإلى الأعلى من ممنونيوس يقع ما يقارب 40 كهفاً محفوراً في الصخر هي مقابر للملوك مبنية بناء بديعاً يستحقّ التأمل. وفي طيبة[123] يحمل بعض النّصب التذكارية[124] نقوشاً تظهر مدى ثراء ملوك تلك الأزمنة، وممتلكاتهم التي كانت تمتدّ حتّى أرض السكيثيين، والباكتريين، والهنود، وإيونيا الحالية، والمجموع الكلّي للإتاوات التي يجبونها، وتعداد قواتهم المقاتلة الذي يصل إلى ما يقارب المليون مقاتل. ويقولون، إنّ أكثر الكهنة المحلّيين كانوا فلكيين وفلاسفة. ومن ابتكاراتهم، حساب الأيام وفق الشمس وليس وفق القمر، ففي كلّ عام يضيفون 5 أيام إلى 12 شهراً كلّ منها 30 يوماً. ولأن جزءاً إضافياً معروفاً من النهار يبقى خارج الحساب، لذلك، وبهدف إتمام العام لكي يغدو مكتملاً، يضمّون مقطعاً زمنياً محدّداً يتألّف من عدد من الأيام التامة أو الأعوام التامّة

يساوي عدد الأجزاء التي تبقى خارج الحساب مضمومة معاً لتؤلّف يوماً كاملاً[125].

وهذه الحكمة كلّها ينسبونها إلى هرمس بشكل أساس. أمّا زيوس الذي يجلّونه إجلالاً خاصاً، فيكرّسون له أجمل فتاة من أعرق عائلة (يدعو الإغريق مثل هؤلاء الفتيات «بالآدس»)[126]؛ فتمارس هذه البغاء، وتهب نفسها كلّ من يرغب إلى أن يحين وقت التطهّر الطبيعي لجسدها؛ وبعد تطهيرها يزوّجونها، لكنّهم قبل ذلك، وبعد نهاية فترة معاشراتها قبل الزواج، يعلنون الحداد عليها.

47- وبعد طيبة تأتي هيرمونثيدا حيث يعبدون أبوللون وزيوس. كما يحتفظون هنا بثور أيضاً. ثمّ تلي هيرمونثيدا مدينة التماسيح التي يعبد سكّانها هذا الحيوان. وتأتي بعدها أفروديتبوليس ولاتوبوليس التي تعبد فيها أثينا ولاتوس[127]؛ ثمّ تأتي مدينة إيلثيا ومعبدها؛ وبعدهما أبوللونوبوليس التي تشنّ بدورها حرباً على التماسيح.

48- أمّا سيينا وإليفانتين فإنّ الأولى تقع على الحدود بين إثيوبيا ومصر، والثانية جزيرة في النيل تقع قبالة سيينا على بعد نصف مرحلة؛ وتقع في هذه الجزيرة مدينة فيها معبد كنوثيدا، ونيلوميتر، كما في ممفيس. والنيلوميتر هي بئر على ضفّة النيل مبنية من حجارة متراصة يرصدون بها أعلى مستوى لفيضان النيل، وأدنى مستوى له، ومتوسط مستواه، لأنّ المياه في البئر ترتفع وتنخفض تبعاً لمستوى ارتفاعها وانخفاضها في النهر. وعلى هذا النحو فإن جدار البئر يحمل علامات تقيس أعلى مستويات ارتفاع مياه النهر وسواها من الارتفاعات الأخرى. وينقل مراقبو هذه العلامات مشاهداتهم للآخرين؛ لأنّ هذه العلامات والقياسات[128] تنبئ بمستوى ارتفاع الماء في النهر قبل حدوثه بوقت. وهذه المعلومات ضرورية للفلاحين من أجل توزيع مياه الري، وبناء الحواجز، والقنوات وما شابه من المنشآت؛ كما أنها ضرورية للحكّام أيضاً لتحديد حجم واردات الدولة، فالفيضانات القوية تنبئ بواردات أكبر. وفي سيينا بئر تحدّد الانقلابات الشمسية الصيفية، لأنّ هذه المنطقة تقع تحت الدائرة الاستوائية[129]، وترغم المَيْل على ألاّ يلقي عند منتصف النهار ظلاً. فلو تقدّمنا إلى الجنوب من منطقتنا (وأنا أقصد هنا إلى اليونان)، فإنّ الشمس سوف تقع لأوّل مرّة فوق رؤوسنا وتمنع المَيْل من إلقاء ظلّ. وإذا كانت الشمس فوق رؤوسنا فإنها بالضرورة ستلقي بأشعتها في البئر حتّى سطح الماء فيه، حتّى لو كان الماء فيه على عمق كبير.فنحن نقف على خطّ متعامد مع الأرض وحُفر الآبار تحفر بالاتجاه عينه. وتعسكر هناك ثلاث فصائل حراسة رومانية.

49- وإلى الأعلى قليلاً من إليفانتين يوجد مسقط مائي يقيم عنده القواربيون للولاة ما يشبه العرض. ويقع هذا المسقط في وسط النهر؛ فيبدو كأنه صخرة بارزة، قمّتها مستوية بحيث تتلقى ماء النهر عليها، لكنّها تنتهي بانهدام شديد الانحدار تهوي المياه عبره هادرة؛ وعلى جانبيّ الصخرة نحو البرّ يجري مجرى مائي يمكن الإبحار فيه صعوداً مع النهر. وعلى هذا النحو، بعد أن يبحر القواربيون في هذا المجرى إلى الأعلى أوّلاً، يعودون من ثمّ ليبحروا فيه نزولاً، إذ يشدّهم التيار نحو المسقط المائي، فيهوون مع القوارب في الانهدام، ليخرجوا في نهاية المطاف سالمين مع قواربهم. وإلى الأعلى قليلاً من الشلال تقع تقع جزيرة فيلاّ؛ وهي مستوطنة مشتركة بين الإثيوبيين والمصريين، ومبنية كما إليفانتين، وتساويها من حيث الحجم؛ وفيها معابد مصرية. وتوجد هنا أيضاً عبادة الطائر الذي يسمّى الحدأة، على الرغم من أنني لا أرى شيئاً مشتركاً بينها وبين حدآتنا أو الحدآت المصرية، فهي أكبر قليلاً، وألوان ريشها مختلفة تماماً. ويقولون إنّ هذا الطائر طائر إثيوبي، وأنّ الآخر جيء به من تلك البلاد عندما مات الأوّل أو قبل ذلك بقليل. وقد أرونا الطائر فعلاً عندما كان يحتضر بعد أن فتك به المرض.

50- لقد وصلنا إلى فيلاّ من سيينا في مركبة بعد أن عبرنا منطقة سهلية امتدت على ما يقارب 100 مرحلة[130]. وعلى امتداد هذه الطريق كلّها يمكن أن ترى على الجانبين، وفي كثير من الأماكن، قطعاً صخرية مستديرة عالية ملساء تماماً، كروية تقريباً، وهي من الحجر الأسود الصلب الذي يصنعون منه الأجران؛ والحجر الأكبر منها يقف على الأصغر دائماً، وفوقه آخر، و... وفي بعض الأحيان كانت الحجارة كلاًّ على حدة؛ وأكبر الحجارة لم يكن قطره أقلّ من 12 قدماً، أمّا الحجارة كلّها مجتمعة فقد كان حجمها أكبر من نصف هذا الحجم. وقد انتقلنا إلى الجزيرة على باكتون. والباكتون هو قارب صغير مصنوع من أغصان الصفصاف المربوط بعضها إلى بعض بحيث يشبه القفص. وعلى هذا النحو انتقلنا إلى هناك وقوفاً في الماء أو جلوساً على مقاعد خشبية ما، وكانت الرحلة سهلة، ولذلك كان الخوف الذي عشناه لا مبرر له، لأنّ هذه القوارب آمنة تماماً إذا لم تحمل أكثر من طاقتها.

51- مع أنّ شجر النخيل في مصر على وجه العموم، يعطي ثمراً رديئاً، ويعطي في الدلتا والإسكندرية ثمراً غير صالح للأكل، إلاّ أنّ نخيل منطقة طيبة هو الأفضل على وجه العموم، وما يثير الاستغراب، هو أن هذه البلدان التي تقع على دائرة طول

واحـدة مـع اليهوديـة وجوارهـا (البلـدان الواقعـة حـول الـدلتا والإسـكندرية)، مختلـف واحـدها عـن الآخـر اختلافـاً كـبيراً؛ فاليهوديـة تنـتج عـلاوة علـى نـوع مختلـف مـن أنـواع التمور، ثمر جوز الهند، وهو يعدّ أفضل قليلاً مـن الـذي تنتجـه بابل. وفي منطقـة طيبـة، وكـذلك في اليهودية نوعان مـن النخيـل - جـوز الهنـد والنـوع الآخـر؛ وتمـور نخيـل منطقـة طيبة أكثر صلابة، وأطيب مذاقاً. وثمّة هناك جزيرة هي التي تنـتج أفضـل التمـور الـتي تـدرّ علـى الـولاة مـردوداً كـبيراً. فمـزارع النخيـل كانـت فيمـا مضـى ملكيـة خاصـة للملوك، ولم يكن لأيّ فرد حق فيها؛ أمّا الآن فهي ملكية خاصة للولاة.

52- ويهـذر هـيرودوت[131] وكتّـاب آخـرون بكـثير مـن الترّهـات، فيزخرفـون قصصهم بأوهام لا سابق لها، كأنها نغمات موسيقية، إيقاعات، أو توابل. فعلى هـذا المنوال مثلاً، زعمهم أنّ منابع النيل تقع في مكـان مـا قـرب سيينا وإليفانتين (وعـددها هناك بضعة منابع)، وإن عمق مجرى النهر هناك لا قرار له. وفي النيل يتبعثـر كـثير مـن الجـزر الـتي تغـرق الميـاه بعضـها تمامـاً وقـت فيضـان النهـر، وبعضـها الآخـر تغمـره الميـاه جزئياً؛ أمّا الأماكن التي تعلو كثيراً فوق سطح الماء فتروى بمضخّات حلزونية.

53- لقـد تميّـزت مصـر منـذ أقـدم الأزمنـة بحياتهـا المسـالمة، فهـي كانـت دائمـاً بلاداً مكتفية، ومنيعـة ضـدّ غـزو الخـارج، فتحتمـي مـن الشـمال بـالبحر المصـري الـذي يخلـو سـاحله مـن أي مـوانئ، ومـن الشـرق والغـرب بجبـال العربيـة وجبـال ليبيـا، كمـا كنـت قـد أشـرت مـن قبـل[132]. وفي أجزائهـا الأخـرى باتجـاه الجنـوب، يقطـن التروغلوديتيـون، والبليمّيـون، والنوبيـون، والميغابـاريّون، والإثيوبيـون الـذين يعيشـون إلى الأعلـى مـن سيينا. وهـؤلاء كلّهـم بـدو رحّـل؛ أعـدادهم قليلـة وليسـوا عـدوانيين، مـع أن القدماء عدّوهم عـدوانيين لأنهـم غالبـاً مـا كـانوا يهـاجمون العـزّل ليسـلبوهم. أمّـا فيمـا يخـصّ الإثيـوبيين الـذين تمتـدّ منطقـتهم أبعـد نحـو الجنـوب، حتّـى ميرويـه، فأعـدادهم ليست كبيرة أيضاً، ولا يجمعهم أي تحالف، لأنهم، كما قلت سابقاً[133]، يعيشون في واد نهـريّ طويل، ضيّق ومتعـرّج؛ وهـم غـير مـؤهلين لحيـاة التنقـل ومـا شـابهها. ولا تـزال البلاد حتّى يومنا هذا تعيش مثل هذه الحياة المسالمة الآمنـة نسبياً. ويشـهد علـى هـذا مـا يلي: يحقّق الرومان نجاحاً واضحاً في تعاملهم مع حماية البلاد بثلاث فصائل فقـط، بـل حتّـى هـذه ليسـت كاملـة؛ وعنـدما تجـرّأ الإثيوبيـون يومـاً وهـاجموا الرومـان، عرّضـوا بلادهم نفسها للخطر. وبالكاد تكون القوات العسكرية الرومانيـة الأخـرى في مصـر أكبر مـن هـذه القـوات، فالرومـان لم يوحّـدوها في أي وقـت لإدارة عمليـات مشـتركة.

وبسبب قلّة أعداد القوات المقاتلة لم يتميّز سلوك المصريين أنفسهم ولا سلوك جيرانهم بالعدوانية. فكورنيلوس غاللوس، وهو أوّل وال عيّنه قيصر على مصر، هاجم مدينة هيرونبوليس الثائرة بقوة عسكرية صغيرة واستولى عليها؛ كما نجح في وقت قصير أن يخمد الاضطرابات التي قامت في منطقة طيبة احتجاجاً على الإتاوات. وفيما بعد حينما هاجم بترونيوس حشد من عشرات آلاف من الإسكندريين، وأخذوا يرجمونه بالحجارة، صدّ هجومهم بمن كان معه من حرسه الشخصي، فقتل عدداً منهم وأخضع الباقي. وأنا كنت قد تحدّثت عن إيليوس غاللوس[134]، وكيف اكتشف ضعف الروح القتالية لدى السكّان المحلّيين عندما اجتاح العربية بجزء من الفوج الذي كان معسكراً في مصر. ولولا خيانة سيلليوس، ربّما كان قد نجح في الاستيلاء على العربية السعيدة كلّها.

54- بعد أن امتلأ الإثوبيون شجاعة، لأنّ جزء من القوات الرومانية في مصر بقيادة إيليوس غاللوس كان قد زجّ به في حرب مع العرب، هاجموا منطقة طيبة وفوج سيينا المؤلّف من ثلاث فصائل، واستولوا على سيينا، وإليفانتين، وفيلاّ، وحولوا السكّان إلى عبيد، وحطموا تمثال قيصر. ولكنّ بترونيوس زحف إلى هناك على رأس جيش قوامه أقلّ من 10.000 من المشاة، و800 فارس، ليواجه 30.000 من قوات الأعداء، فأرغم العدو على أن ينحدر إلى المدينة الإثيوبية بسيلخيس أوّلاً، ثمّ أرسل إليهم سفارة بطلب ردّ ما كانوا قد استولوا عليه، وبسؤال عن السبب الذي دفعهم لبدء الحرب. وعندما أعلن الإثيوبيون أن النومارخ[135] أساؤوا إليهم، أجابهم بترونيوس، أن هؤلاء ليسوا حكّام البلاد، إنما قيصر هو حاكمها. وعندما طلبوا ثلاثة أيام مهلة للتفكير بالأمر، ولم يفعلوا شيئاً مما كان ينبغي أن يفعلوه فعلاً، هاجمهم بترونيوس وأرغمهم على الدخول في المعركة، وألحق بهم هزيمة سريعة، لأنهم لم يعرفوا كيف ينظمون صفوفهم جيّداً، ولأن أسلحتهم كانت رديئة. فقد كانوا يحملون تروساً كبيرة متطاولة مصنوعة من جلود الثيران الخام غير المدبوغة، وكانت الفأس الحربية هي سلاحهم القتالي، لكنّ بعضهم كان يحمل رماحاً، وآخرون يحملون سيوفاً. لقد دفع الرومان بفريق من الأعداء القهقرى نحو المدينة، بينما فرّ فريق آخر منهم نحو الصحراء، ورمى فريق ثالث بنفسه إلى القناة (بسبب شدّة تيار الماء لم يكن فيها سوى قليل من التماسيح)، ووجد ملجأ على الجزيرة المجاورة. وكان بين الفارّين قادة قوّات الملكة كانداكا التي كانت في أيامنا ملكة على الإثيوبيين، وكانت هذه امرأة ذات

طباع رجالية، وعوراء بعين واحدة. وقد أخذ بترونيوس هؤلاء كلّهم أسرى، إذ أبحر إلى هناك على متون القوارب والسفن، ثمّ أسرع وأرسلهم إلى الإسكندرية؛ ثمّ شنّ هجوماً على بسيلخيس واستولى عليها. وعندما أحصى قتلى الأعداء وأسراهم، تبيّن له أنه لم ينج منهم سوى عدد قليل. ومن بسيلخيس وصل بترونيوس إلى المدينة المحصّنة بريمنيس، بعد أن اجتاز منطقة كثبان رملية كانت قد حاصرت عاصفة رملية فيها قوات قمبيز وطمرتها. فهاجم بترونيوس القلعة واستولى عليها عنوة. ثمّ تحرّك بعد ذلك ضدّ ناباتا. وكانت هذه المدينة هي عاصمة كانداكا ومقرّها الملكيّ؛ وكان ابنها هناك، أمّا هي فقد استقرّت في ضاحية قريبة. ومع أنّ الملكة أرسلت سفارة تطلب عقد اتفاق صداقة، وتتعهّد بردّ الأسرى والتماثيل التي كانت قد استولت قواتها عليها في سيينا، إلاّ أنّ بترونيوس شنّ هجوماً على ناباتا، فاستولى عليها (وكان ابنها قد نجح في الفرار من المدينة)، ودمّرها تماماً، وأخذ سكّانها عبيداً، وعاد أدراجه بالغنيمة إذ رأى أن المناطق التي تقع بعد ذلك، هي مناطق وعرة عصية على القوات. ومع ذلك حصّن بريمينس أفضل مما كانت عليه تحصيناتها من قبل، وترك هناك حراسة ومؤونة تكفي 400 إنسان مدّة عامين، وعاد أدراجه إلى الإسكندرية. أمّا الأسرى فقد باع أعداداً منهم كغنيمة حربية، وأرسل ألفاً منهم إلى قيصر الذي كان قد عاد لتوّه من كانتابريا، وأهلكت الأمراض ما تبقى منهم. وفي الأثناء زحفت كانداكا على القلعة بأعداد لا تحصى من المقاتلين، لكنّ بترونيوس سبق الملكة ووصل إلى القلعة قبلها. وبعد أن اتخذ عدداً من الإجراءات الضرورية، وأمّن القلعة من اقتحام الأعداء لها، جاءه السفراء من جديد، لكنّه أمرهم بالتوجه إلى قيصر. وعندما أعلن هؤلاء أنهم لا يعرفون من هو قيصر، ولا إلى أين عليهم أن يذهبوا إليه، ألحق بترونيوس بهم مرافقة. وجاء السفراء إلى ساموس حيث كان قيصر يستعدّ فيها ليتوجّه إلى سوريا، بعد أنّ جهّز طيباريوس وأرسله إلى أرمينيا. وبعد أن نال هؤلاء مطالبهم كلّها، أضاف إليها قيصر إعفاءهم من الإتاوات التي كان هو نفسه قد فرضها عليهم.

الفصل الثاني

1- لقد نقلت فيما سبق من هذا العرض كثيراً من المعلومات عن شعوب إثيوبيا، وعليه يمكن أن نعطي وصفاً لبلادهم في سياق وصفنا لمصر. ويمكن القول على وجه العموم، إن أطراف المعمورة الواقعة على طول المنطقة غير المعتدلة، هي منطقة خالية

من السكّان بسبب شدّة الحرّ أو شدّة البرد، وينبغي أن تكون بمثابة تشويه للمنطقة المعتدلة أو تردّؤ لها. وهذا ما يمكن أن نراه في نمط عيش سكّان هذه الأطراف، ونقص متطلبات العيش عندهم. وواقع الحال أنهم يعيشون عيشة بائسة، وأكثرهم يطوف عارياً، ويحيا حياة التنقل. ويقتنون من الحيوانات المنزلية الأغنام، والماعز، والأبقار القصيرة القامة، والكلاب الصغيرة الحجم، لكنّها رشيقة وشرسة. وربّما قصر قامة هؤلاء الناس، هو الذي أنتج أساطير الأقزام والتصوّرات التي شاعت عنهم؛ فلم يؤكّد أيّ ممن يستحقّون الثقة أنه رآهم بأمّ عينه.

2- ويعيش الإثيوبيون على الدخن والشعير الذي يستخرجون منه شراباً أيضاً، ويستهلكون بدلاً من زيت الزيتون الزبدة البقرية والدهن الحيواني. وليس في بلادهم أشجار مثمرة، ما عدا بعض أشجار النخيل المزروعة في الحدائق الملكية. ويستهلك بعضهم في غذائه الأعشاب، والنباتات الغضّة، وزهر اللوتس، وجذور القصب؛ كما يأكلون اللحوم، والأجبان، ويشربون الدماء، والحليب. ويعبدون ملوكهم كآلهة؛ ويقيم هؤلاء في قصورهم في عزلة. وأكبر مقرّ ملكي عندهم هو مدينة ميرويه، سميّة إحدى الجزر. ويقولون إن الجزيرة المذكورة لها شكل الترس المتطاول. وربّما بالغوا في تقدير أبعادها: ما يقارب 300 مرحلة في الطول، و1000 مرحلة في العرض. وفي هذه الجزيرة كثير من الجبال، والأدغال الكبيرة؛ ويتألّف سكّانها من البدو الرحل والصيادين، كما من الفلاحين أيضاً؛ وفيها مناجم نحاس، وحديد، وذهب، وشتّى أنواع الحجارة الكريمة. وتحيط بالجزيرة من جهة ليبيا كثبان رملية كبيرة، ومن جهة العربية جروف صخرية شديدة الانحدار متصل بعضها ببعض من غير انقطاع، ومن جهة الجنوب ملتقى أنهار أستابورا، وأستابود، وأستاسوبا، ومن الشمال باقي مجرى النيل وصولاً إلى مصر على طول التواءات النهر المذكورة. ومنازل المدن مبنيّة من خشب النخيل المضفور أو من آجرّ أحفوري متحجّر، كما عند العرب. ومن الأشجار غالباً ما نلقى النخيل، والبيرسيا[1]، والأبنوس، والكيراتيا[2]. ويصيدون الفيلة، والأُسود، والنّمور. وتسعى هنا الثعابين التي تصارع الفيلة؛ ويوجد هنا أيضاً كثير من الحيوانات البرّية الأخرى؛ فالحيوانات تهرب من الأماكن الحارّة الجافّة إلى الأماكن الرطبة المستنقعية.

3- وتقع فوق ميرويه بحيرة كبيرة تدعى بسيبو، وفيها جزيرة كبيرة فيها أعداد كبيرة من السكّان. وبما أنّ الليبيين يشغلون الجانب الغربي من مجرى النيل،

ويشـغل الإثيوبيـون الجانـب المقابـل، فـإن هـؤلاء يسـتولون دوريـاً علـى الجـزر والمنطقـة النهرية، فيطرد فريق الفريق الآخـر الـذي يخلـي المكـان للأقوى. ويسـتخدم الإثيوبيـون الأقـواس الخشـبية المشـوية علـى النـار لتقسـيتها، ويبلـغ طـول القـوس الواحـدة منهـا أربـع أقدام. كما يسلّحون نسـاءهم أيضـاً، وأكثـر النسـاء يغرسـن في شـفاهن حلقـة معدنيـة. ويرتدي الإثيوبيون فراء الضأن، لأنه ليس عندهم صوف، فأغنـامهم مكسـوّة بالشـعر، كالماعز؛ وبعضهم يسير عارياً، بينمـا يتـأزّر بعضـهم الآخـر بجلـود صـغيرة أو أحزمـة مـن الشعر مشغولة بإتقان. ويعتقدون بأن هناك إلهين، أحدهما خالد (وهو علّة كلّ شـيء)، والآخـر فـانٍ لا اسـم لـه ومـبهم. ويعبـد أكثـرهم المحسـنين مـنهم وأفـراد العائلـة المالكـة كآلهة؛ ويعدّون ملوكهم مخلّصين وحماةَ كلّ شـيء، ويـرون في المتميّـزين آلهـة مـن نـوع خاص بالنسبة لأولئك الـذين أحسـنوا إلـيهم. ويعـدّ بعـض الـذين يعيشـون علـى مقربـة مـن المنطقة الحارّة، أناساً ملحدين، وفي أقلّ تقدير يقولون، إنهـم يكرهـون حتّـى الشـمس، ويشـتمونها وهـم ينظـرون نحـو مشـرقها، لأنهـا تحـرق، وتكـنّ لهـم العـداء؛ ولـذلك يلجـأ هؤلاء إلى المستنقعات. ويعبد سكّان ميرويه هرقـل، وبـان، وإيـزيس، إضـافة إلى إلـه مـا آخـر بربـريّ. أمّـا الأمـوات فبعضـهم يرمـون بهـم في النهـر، وآخـرون يحتفظـون بهـم في منـازلهم تحـت غطـاء زجـاجي؛ وفريـق ثالـث يـدفنهم في مقـابر طينيـة حـول المعابـد؛ وهـم يطالبون بالالتزام بالأيمان التي يقسـمونها باسـم المتـوفّين، ويـرون في هـذه الأيمـان أيمانـاً أكثر قدسية من أيّ شيء آخر. ويختارون ملـوكهم مـن الأشـخاص الأكثـر وسـامة، أو مـن المتميّـزين في تربيـة المواشـي، والشـجاعة، أو الثـراء. وفي ميرويـه شـغل الكهنـة منـذ أقدم الأزمنة المكانة الأعلى في المجتمع، حتّى أنّ هؤلاء كانوا يأمرون الملك نفسـه عـبر رسول منهم بأن يموت، ثمّ يعيّنون ملكاً آخر مكانه. لكنّ أحد الملوك ألغـى فيمـا بعـد هذا التقليد، فقد أغار بقواته المسلحة على المعبد الذي كانوا يحتفظون فيه بالصـندوق الذهبي وقتل الكهنة عـن بكـرة أبيهم. كمـا يعـدّ التقليـد الثـاني إثيوبيـاً بـدوره: إذا مـا أصـيب أحـد أعضـاء جسـد الملـك بـأذى مـا، فـإن الأذى نفسـه يجـب أن يلحـق بـأقرب أصدقائه، حتّى أنهم ينبغي أن يموتوا مع الملك؛ ولذلك كانوا يحافظون على حيـاة الملـك بمنتهى الحيطة والاهتمام. أرى أنّ ما قلته هنا عن الإثيوبيين كاف.

4- وينبغي عليّ أن أذكر من بـين المعـالم المصـرية الأخـرى، سمـات الـبلاد الآتيـة أيضـاً، مـثلاً، مـا يسـمّى بـالفول المصـري[3] الـذي يصـنعون منـه كـؤوسـاً يسـتخدمونها للشـرب، وكـذلك نبـات البيبـل[4]؛ فهـذا النبـات لا ينمـو إلاّ هنـا وفي الهنـد؛ والبيرسـيا

بدورها لا تنمو إلاّ هنا وعند الإثيوبيين؛ وهذه الأخيرة شجرة كبيرة تطرح ثمراً كبير الحجم حلو المذاق؛ ومن المعالم الأخرى أيضاً، شجرة التوت التي تطرح ثمراً يدعى سيكومور، لأنه يشبه التين، لكنّ أهميته الغذائية متواضعة. وينمو هنا أيضاً نبات الكورسوس[5]، وهو من التوابل التي من أنواع الفلفل، لكنّه أكبر منه قليلاً. أمّا أسماك النيل فإنها كثيرة ومتنوّعة وتتميّز بسمات محلّية خاصة. ومن أشهرها الأوكسيرينخ[6]، واللبيبيدوت[7]، واللاتوس[8]، والألابيتيا[9]، والكورالكين[10]، والكويروس[11]، والفاغروريوس[12]، وكذلك ما يدعى الفاغروس؛ ثمّ القرموط، والسلمون، والفريسّا[13]، والكيستري[14]، والليخين[15]، والفيسا[16]، والبوس[17]؛ ومن الرخويات، القواقع الكبيرة التي تصدر صوتاً يشبه النقيق. وفيما يخصّ الحيوانات المحلّية فإنّ في مصر منها الفأر الفرعوني، والحيّة المصرية التي تتميّز عن حيّات البلدان الأخرى ببعض السمات الخاصة بها؛ وثمّة نوعان من هذه الحيّة: نوع يبلغ طوله شبراً واحداً لدغته تقتل في الحال، والنوع الآخر طوله ساجن تقريباً، كما يقول نيكاندرس[18] الذي كتب بحثاً بعنوان «الترياق». ومن الطيور أبو منجل، والحدأة المصرية، وهي طائر أليف بالمقارنة مع حدآت الأماكن الأخرى، ومثلها في هذا مثل الهرّ؛ وغراب الليل في مصر من نوع خاص، فحجمه عندنا يبلغ حجم النسر ويطلق صوتاً ضعيفاً؛ أمّا في مصر فيبلغ حجمه حجم الغراب ويصرخ بصوت مختلف. وأكثر الطيور إلفة هنا، هو أبو منجل؛ وهو يشبه اللقلق من حيث الشكل والحجم، ولكنّه نوعان بحسب اللون: أحدهما من نوع اللقلق، والآخر أسود تماماً. وتملأ هذه الطيور تقاطعات شوارع الإسكندرية كلّها، وقد يكون أبو منجل نافعاً في بعض الأحيان، وضارّاً في أحيان أخرى، فهو نافع لأنه يلتقط كلّ الحيوانات المؤذية ونفايات حوانيت اللحامين والمخابز؛ ومؤذ لأنه يلتهم كلّ شيء، وقذر وبالكاد يمكن إبعاده عن الأشياء النظيفة التي لا تحتمل أي تقذير كان.

5- إنّ ما يقوله هيرودوت[19] عن المصريين إنهم يعجنون الطين بأيديهم ودقيق الخبز بأرجلهم صحيح تماماً. وكذلك يعجنون الكاكيس[20]، وهو نوع خاص من أنواع الأقماح له فاعلية قابضة للمعدة؛ والكيكي[21]، وهو نوع من أنواع الثمار التي يزرعونها في حقولهم؛ ويستخرجون منها زيتاً يستخدمه سكّان البلاد كلهم تقريباً لإضاءة القناديل، أو يدهن به أجسادهم أكثر أفراد فئات السكّان فقراً، الذين يؤدّون أعمالاً مضنية، سواء كانوا نساء أم رجالاً. وكذلك الكوكينا[22]، وهي نوع من

أنـواع الحصـر المصـرية المجدولـة مـن نبـات مـا ، والـتي تشـبه المصـنوعات القصـبية أو المصنوعات التي تصنع من شـجر النخيـل. ويصنـع المصـريون جعّتهم مـن الشـعير بطريقـة خاصـة؛ والجعّـة مشـروب شـعبي واسـع الانتشـار ، لكـنّ طرائـق تحضيرها مختلفـة. ومـن التقاليد التي يحـرص المصـريون حرصـاً شـديداً علـى الالتـزام بهـا التقليـد التـالي: ترضـع المصريات المواليد الجدد كلّهم، ويختتون الذكور والإناث، على غرار ما يفعل اليهـود؛ فهـؤلاء الأخـيرون مـن أصـل مصـريّ أيضـاً ، وهـذا مـا كنـت قـد ذكرتـه في وصـفي لـبلادهم[23]. وبحسـب أريسـتوبول أنّ أيّ سمكـة بحريـة لا تـدخل النيـل بسـبب وجـود التماسيح في مياهـه، مـا عـدا الكيسـتري، والفريسّـا ، والـدلافين؛ فالـدلفين أقـوى مـن التمساح، والكيستري، لسبب طبيعـي مـا يرافقـه الكـويروس[24] علـى طـول الشـاطئ؛ وتحـرص التماسـيح علـى أن تكـون بعيـدة عـن الكـويروس، لأنّ هـذا الأخـير دائـري الشكل وفي رأسه أشواك تشكّل خطورة على التماسيح. وفي فصل الربيع يصعد سمك الكيسـتري مـع مجـرى النهـر، ثـمّ يهـبط عائـداً قبيـل شـروق الثريـا أسـراباً لكـي يضـع بيوضه؛ وعندئذٍ يبدأ موسم صيده، لأنه يقع إسراباً في المصائد التي تنصب لـه. والسـبب عينه يمكن أن ينسحب على الفريسّا. هذا هو وصف مصر.

الفصل الثالث

1- بحسـب الترتيـب الـذي اتّبعنـاه جـاء الآن دور ليبيـا ، فلـم يبـق مـن «جغرافيتنـا» كلّها سوى هذا الجزء من العالم. ومع أنه كان قد تسنّى لي من قبل أن أتحدّث كثيراً عن هذه البـلاد ، إلاّ أنـه ينبغـي الآن أن أذكّـر مـرّة أخـرى بكـلّ مـا ينـاسـب هـذه المـادّة، لأضيف مـا لم أقلـه مـن قبـل. فعنـدما قسّـم الكتّـاب المعمـورة إلى قـارّات، قسـموها إلى أجزاء غير متساوية. والحقيقة إنّ تقسيمها إلى ثلاثة أجزاء يرغمنا على أن نتوقّع تقسيماً إلى ثلاثـة أجـزاء متسـاوية؛ ولكـنّ ليبيـا ، عـدا عـن أنهـا لا تؤلّـف ثلـث المعمـورة، فإنهـا إضافة إلى أوروبا لا يمكـن مقارنتهـا بآسـيا. وقـد تكـون مسـاحتها هـي نفسـها أقلّ مـن مساحة أوروبا ، كمـا أنهـا أضعف قوّة من هـذه الأخيرة ، لأنّ الشـطر الأعظـم مـن جزئهـا الداخلي وساحلها على المحيط هو أقاليم صحراوية؛ وهـي مزروعـة بقـرى صغيرة مبعثـرة هنـا وهنـاك وأغلـب سـكّانها مـن الرحّـل؛ وعـلاوة علـى الصـحارى، تعـدّ ليبيـا مـوئلاً للحيوانات البرّية التي ترغم الناس على أن تغادر حتّى المنـاطق الـتي يمكـن العـيش فيهـا. كما تشمل شطراً كبيراً من المنطقة الحارّة. وعلى وجه العموم فإن السـاحل المقابل لنـا

كلّه، وعلى وجه التحديد بين النيل وأعمدة هرقل، خاصة الجزء الذي كان يوماً ما للقرطاجيين، يعدّ إقليماً خصيباً وفيه كثافة سكّانية عالية؛ ولكن توجد هنا مناطق قاحلة أيضاً، كالمنطقة القريبة من السرتين، والمارماريدونيين، وكاتاباسم.

وإذا تخيّلنا ليبيا على سطح مستو، فإنها من حيث الشكل عبارة عن مثلث قائم الزاوية قاعدته الساحل المقابل لنا الذي يمتدّ من مصر والنيل حتّى ماوروسيا وأعمدة هرقل؛ ويشكل النيل الضلع العمودية عليها حتّى إثيوبيا، وأنا مددت هذه الضلع حتّى المحيط؛ وأخير الضلع التي تشكل الزاوية القائمة، وهي ساحل المحيط كلّه الممتدّ بين الإثيوبيين والماوروسيين. أمّا رأس الشكل المذكور، والتي تكاد تنتمي إلى المنطقة الحارّة، فإنّ وعورة مسالكها ترغمنا على أن نكتفي بالتوقعات فقط، فأنا لا يمكنني أن أحدّد أقصى حدود هذه البلاد؛ مع أني كنت قد تحدّثت كثيراً فيما سبق من عرضي[1] هذا عن أننا لو اتّجهنا جنوباً من الإسكندرية إلى ميرويه عاصمة الإثيوبيين، فإن طول الطريق سيقارب 10.000 مرحلة، ومن هناك على خطّ مباشر إلى الحدود الفاصلة بين المنطقة الحارّة والمنطقة المعمورة، 3000 مرحلة أخرى، وهذا الامتداد هو الذي ينبغي اعتماده كأقصى عرض لليبيا، وعلى وجه التحديد 13.000 أو 14.000 مرحلة، أمّا طولها فهو أقلّ من هذا بمرتين. إن هذا وصفي لليبيا على وجه العموم. ويجب أن أنتقل الآن إلى التفاصيل، وسأبدأ من الأجزاء الغربية الأكثر شهرة.

2- تقطن هنا شعوب يدعوها الإغريق بالشعوب الماوروسية، ويدعوها الرومان محلّية: ماورية؛ وهؤلاء قبيلة ليبية غنية وكبيرة تعيش على الجانب المقابل لإيبيريا من المضيق. فهنا يوجد مضيق عند أعمدة هرقل كنت قد أتيت على ذكره مراراً. وإذا ما أبحرت من هذا المضيق إلى الأمام متخذاً ليبيا على يسارك، فإنك تصل إلى الجبل الذي يدعوه الإغريق جبل أطلس، بينما يدعوه البرابرة ديريس. ويخرج من هذا الجبل فرع: أقصى قمة إلى الغرب من ماوروسيا، وتدعى كوتيسا. وثمّة على مقربة مدينة صغيرة على البحر يدعوها البرابرة تينكس[2]، ويدعوها أرتيمدور لينكس، ويدعوها إيراتوسفين ليكس[3]. وتقع هذه المدينة على الجانب الآخر من المضيق عند المعبر المقابل لغادير على مسافة 800 مرحلة؛ وعلى مسافة مماثلة تقع كلّ من هاتين النقطتين عن مضيق أعمدة هرقل. وإلى الجنوب من ليكس وكوتيسا يقع خليج يدعى إيمبوريك عليه مستوطنات تجارية فينيقية. والحقيقة أن كلّ الساحل الذي يجاور هذا الخليج مليء بالأخوار، ولكن لو استبعدنا الأخوار والنتوءات من على هذا الشكل المثلث الذي

رسمتـه، فإنـه ينبغـي عندئـذٍ أن نتخيّـل أنّ امتـداد القـارّة سـيزداد نحـو الجنـوب والشـرق. وكما الجبل نفسه الذي يعبر في وسط ماوروسيا من كوتيسا حتّى السرتين، كذلك الجبـال الأخـرى الواقعـة في موازاتـه، يسـكنها في بداياتها الماوروسـيون، لكـنّ عمـق البلاد تسكنه أكبر القبائل الليبية، قبيلة الجيتوليين.

3- ابتـداء مـن «رحلـة أوفيلـوس»[4]، جـاء المؤرّخـون بكـثير مـن الاختلاقـات حـول ساحل ليبيا الخارجي؛ وأنا كنت قد ذكّرت بهذا من قبل[5]، وها أنا أتحدّث الآن ثانيـة، لكـني أُقـدّم اعتـذاري مسـبقاً عـن الحكايـات العجيبـة، إذا مـا وجـدت نفسـي مضطراً في مكان ما على أن أذعن لشيء ما يشبه هذا، لأنّي لا أميل إلى إغفال هذا كلّياً فأفسد بذلك روايتي إلى حدّ ما. فيروى مثلاً، إنه ثمّة في خليج إيمبوريك كهف يبتلع البحر في أثناء المدّ على امتداد سبع مراحل؛ وإن أمام هذا الخليج يقع مكان منخفض ومستو يقوم فيه مذبح لهرقل، وبحسب الروايات أنّ المدّ لا يغمره. وأنا أرى أن هذه الرواية واحدة من الروايات المختلقة. وتشبه هذه الترّهة قصة تقول: كانت تقوم في الخلجان التي تلي خليج إيمبوريك مباشرة، قرى التيرينيين القديمة المهجورة الآن، والتي لا يقلّ عددها عن ثلاثمئة مدينة دمّرها الفاروسيون والنيغريتيون؛ ويقولون، إن هذه القبائل تقع على بعد ثلاثين يوماً عن لينكس.

4- ويقرّ جميعهم بحقيقة أن ماوروسيا بلاد فيها أنهار وبحيرات. وما عدا منطقة صغيرة لا أهمية لها، يكثر في هذه البلاد الشجر الكبير المتنوّع الذي يطرح كثيراً من الثمر. وتزوّد ماوروسيا الرومان بمناضد كبيرة الأحجام، متنوّعة الألوان، ومصنوعة من قطعة واحدة من الخشب. ويقال إن التماسيح ومختلف أنواع الحيوانات الأخرى التي تشبه حيوانات النيل، تعيش في أنهار هذه البلاد. بل وبحسب بعضهم، إن منابع نهر النيل تقع على مقربة من أطراف ماوروسيا. ويعيش في واحد من أنهارها علق طول الواحدة منها 7 أذرع[6]، لها غلاصم مثقوبة تتنفّس منها. ويروى عن هذه البلاد أنّ فيها عرائش عنب بالكاد يستطيع أن يحضنها شخصان، وهي تعطي عناقيد يصل طول الواحد منها إلى ما يقارب الذراع. وكلّ نبات في هذه البلاد ينمو عالياً، كنبات الأروم[7]، ونبات الدراكتونتوس[8] مثلاً، أمّا سيقان الستافيلين[9]، والهيبومارات[10] أو السكوليم[11]، فيصل طولها إلى 12 ذراعاً، وثخنها 4 أشبار. كما تعدّ هذه البلاد موئلاً ملائماً للثعابين، والفيلة، والأيائل، والظباء[12]، وما شابه من الحيوانات، ومثلها الأسود، والفهود. وتسرح فيها بنات عرس التي يبلغ حجم واحدتها حجم الهرّ، وهي

تشبهه في كلّ شيء، ما عدا بوزها الأكثر بروزاً إلى الأمام. وهناك أيضاً كثير من القردة التي يروي عنها بوسيدونيوس ما يلي: في أثناء إبحاره من غادير إلى إيطاليا دُفع به إلى الساحل الليبي، فرأى هناك غابة تمتدّ حتّى البحر، مليئة بهذه الحيوانات؛ بعضها كان يجلس على الشجر، وبعضها الآخر على الأرض، وكان لدى بعضها صغارها الذين ترضعهم؛ وقد ضحك عندما رأى حيوانات بضروع ثقيلة؛ وكان بعضها أصلع، وبعضها الآخر بفتقٍ أو سوى ذلك من العيوب.

5- وفوق ماوروسيا على البحر تقع بلاد الذين يسمّون بالإثيوبيين الخارجيين، والشطر الأكبر من هذه البلاد سكّانه قلّة نادرة. وبحسب إيثيكراتيس[13]، إن الزراف، والفيلة، وما يدعى الريدزيس[14]، تسرح في هذه البلاد. وهذه الحيوانات الأخيرة تشبه الثيران من حيث الشكل، ولكنّها من حيث نمط عيشها، وكبر حجمها وقوتها في العراك، تشبه الفيلة. وهو يتحدّث عن ثعابين كبيرة إلى درجة أن الأعشاب تنبت على ظهورها. ويقول، إن الأُسود تهاجم صغار الفيلة فتجرحها، بيد أنها لا تلبث أن تولّي الأدبار مع اقتراب الأمهات؛ وعندما ترى الأمهات صغارهن مضرجين بالدماء، يجهّزن عليهم؛ عندئذٍ تعود الأسود وتلتهمهم. وعن الملك إله الماوروسيين يقول إيثيكراتيس، إن هذا الأخير سار إلى الأعلى ضدّ الإثيوبيين الغربيين، وأرسل من هناك هدية إلى زوجته عصيّاً قصبية تشبه العصيّ القصبية الهندية، اتسعت عقدتها لثمانية خينكيين، وأرسل إليها أيضاً سيقان من نبات الهليون من الحجم نفسه.

6- وإذا أبحرت من لينكس إلى البحر الداخلي، فستلقى على طريقك مدينة زيلوس وتينغوس، ثمّ نصب الأخوة السبعة والجبل الواقع فوقه والذي يدعى أبيلا، وهو مكان يعجّ بالحيوانات البرّية، ويكسوه شجر كبير. ويقولون، إنّ طول المضيق عند الأعمدة 120 مرحلة، وأصغر عرض له عند جبل إليفانتا 60 مرحلة. وتظهر للمبحر في البحر بعد ذلك عدة مدن وأنهار، حتّى نهر مولوهاس الذي يمثّل حدود أرض الماوروسيين والماسيسيليين. وتقع قرب النهر رأس بحرية كبيرة، وميتاغونيوس، وهي منطقة قاحلة جرداء؛ ويمتدّ الجبل الذي يبدأ من كوتيسا ليصل إلى هذا المكان تقريباً، ويبلغ طوله من كوتيسا حتّى حدود الماسيسليين 5000 مرحلة. أمّا ميتاغونيوس فهي تقع على الشاطئ الآخر قبالة قرطاجا الجديدة تقريباً؛ ويخطئ تيموسفين إذ يزعم أن ميتاغونيوس تقع قبالة ماساليا. فالمعبر من قرطاجا الجديدة إلى ميتاغونيا يشكّل 3000 مرحلة، ويمتدّ الإبحار على طول الساحل حتّى ماساليا أكثر من 6000 مرحلة.

7- ومع أن الشطر الأكبر من البلاد الذي يشغله الماوروسيون، أرض خصيبة. إلاّ أنّ أكثر سكّانه لا يزال حتّى يومنا هذه يعيش حياة البدو الرحّل. لكنّهم يحاولون تجميل منظرهم الخارجي، فيضفرون شعرهم على رؤوسهم، ويطلقون لحاهم، ويتزيّنون بالحليّ الذهبية، وينظفون أسنانهم، ويقلّمون أظافرهم. ومن النادر أن ترى بعضهم يلامس بعضاً أثناء التنزّه، لأنهم يحرصون على ألاّ تمسّ تسريحة شعرهم. ويقاتل أكثر فرسانهم مسلّحاً بالمزاريق، وعلى جياد لجامها من حبل ومن غير سروج؛ لكنّهم على أيّ حال يحملون سيوفاً. أمّا الجنود المشاة فيرتدون جلود الفيلة دروعاً يحتمون بها، ويرتدون جلود الأسود، والنمور، والدّببة وينامون عليها. وهذه القبيلة، ومثلها الماسيسيليون وكذلك الليبيون على وجه العموم، يرتدي أكثرهم الأزياء نفسها، ويشبهون بعضهم بعضاً في الميادين الأخرى أيضاً. جيادهم صغيرة، لكنّها سريعة ومطيعة إلى درجة أن قيادتها ممكنة بغصن صغير. ويضعون على جيادهم هذه أطواقاً من الشعر أو من النسيج القطني، وعليها يربطون أعنّة. وثمّة جياد تسير خلف أصحابها حتّى إذا لم يكن هؤلاء يقودونها من أعنّتها. ومن الشائع عندهم استخدام تروس جلدية صغيرة، ورماح صغيرة نهاياتها عريضة؛ ويرتدون جلابيب حاشياتها عريضة ومن غير أحزمة، كما يرتدون أيضاً جلوداً على شكل معاطف ودروع. ويستخدم الفاروس والنيغريت الذين يقطنون إلى الأعلى من هذه القبائل على مقربة من الإثيوبيين الغربيين، الأقواس، مثلهم مثل الأثيوبيين، كما يستخدمون المركبات القتالية المزوّدة بمناجل. ونادراً ما يتواصل الفاروس عبر الصحراء حتّى مع الماوروسيين، ويربطون إلى بطون جيادهم في غضون ذلك قرباً مملوءة بالماء؛ بل يأتون أحياناً إلى كيرتا عبر مناطق مستنقعات وبحيرات. ويروى أن بعضهم يعيش على غرار التروغلوديتيين، فيحفرون مساكن لهم في الأرض. ويقال أيضاً، إن الأمطار تهطل هنا أساساً في فصل الصيف، أمّا فصل الشتاء فهو فصل الجفاف؛ ويستخدم بعض البرابرة في هذا الجزء من العالم جلود الثعابين والأسماك ملابس ومفارش. وبحسب الكتّاب، إن الماوروسيين(15) هم هنود جاؤوا إلى هنا مع هرقل. وقبيل عصرنا بزمن قليل كان يملك هذه البلاد ملوك من سلالة بوغه وبوغ، الذين كانوا «أصدقاء الرومان» وبعد وفاتهم ورث يوبا مملكتهم، لأنّ أغسطس قيصر منحه هذه المملكة إضافة إلى أملاكه الموروثة. وكان هذا اليوبا ابن يوبا الذي حارب مع سيبيون ضدّ قيصر الإلهي. وقد توفى يوبا منذ بعض الوقت، فآل العرش إلى ابنه بطليموس الذي أنجبته له ابنة أنطونيو وكليوباترا.

8- يعـارض أرتيميـدور إيراتوسـفين لأنـه يـدعو مدينـة مـا عنـد الأطـراف الغربيـة لماوروسيا ليكس بدلاً من لينكس، ثمّ يذكر عدداً كبيراً من المدن الفينيقية المدمّرة التي لم يبق أيّ أثر منها اليوم؛ ويعارضه أيضاً لأنه يصف الهواء في منطقة الإثيوبيين الغربيين مالحاً، فإيراتوسفين يؤكّد أن الهواء في ساعات الصباح وساعات المساء كثيف وضبابي. فيتسائل أرتيميدور، كيف يمكن أن يكون هذا ممكناً في المناطق الجافة والحارّة؟ ولكنّه هو نفسه ينقل عن هذه المنطقة نفسها معلومات تثير الشك أكثر بما لا يقاس. فيروي قصة عن وافدين لوتوفاغيين يعيشون في منطقة قاحلة لا ماء فيها، ويقتاتون باللوتوس، وهو نوع معروف بنباته وجذره، وبعد أن يتذوّقه الإنسان لا يحس بحاجة للماء؛ وعلى حدّ قوله، إنّ مساكن اللوتوفاغيين تنتشر حتّى المنطقة الواقعة فوق قورينائية؛ بيد أنّ سكّان تلك الأماكن يشربون اللبن ويأكلون اللحم، مع أنهم يعيشون في دائرة العرض عينها. وعلى وجه العموم حتّى المؤرّخ الروماني غابينيوس لم يستطع أن يمسك نفسه بعيداً عن الحكايات الخرافية التي تروى عن ماوروسيا. فهو يتحدّث مثلاً عن قبر أنتييوس الواقع قرب لينكس، وعن طول هيكله العظمي الذي يبلغ 60 ذراعاً، والذي كان قد اكتشفه سرتوريوس ثمّ أمر بإعادة دفنه من جديد[16]. كما يروي قصصاً خيالية عن الفيلة. فيروي على سبيل المثال، أنه في الوقت الذي تفرّ فيه الحيوانات الأخرى هاربة من النار، فإن الفيلة تصارعها وتدافع عن نفسها ضدها، لأنّ النار تفني الغابات؛ وتصارع الفيلة البشر بضراوة، وترسل في غضون ذلك فرق استطلاع أمامها؛ وحينما ترى أن الناس ولّت الأدبار هاربة، تفعل هي الشيء عينه؛ وعندما تصاب الفيلة بجروح، فإنها تمدّ أغصاناً، أو أعشاباً، أو تثير الغبار علامة على طلب المساعدة.

9- بعد بلاد الماوروسيين تأتي منطقة الماسيسيليين التي تبدأ من نهر مولوهاس وتنتهي عند رأس بحرية تدعى تريتوس، التي تشكل الحدّ الفاصل بين بلاد الماسيسيليين وبلاد الماسيليين. والمسافة من ميتاغونيوس إلى تريتوس 6600 مرحلة، مع أنّ بعضهم يزعم أنها أقلّ. ويقع على الساحل عدد من المدن والأنهار ومنطقة خصيبة؛ ولكن يكفي أن نذكّر بالأكثر شهرة منها فقط. فعلى بعد ألف مرحلة من الحدود المذكورة تقع مدينة سيغا، وهي عاصمة الملك سوفاكس؛ لكنّ المدينة الآن أطلال. وكان قد استولى على البلاد بعد سوفاكس ماساناسّا، ثمّ ميكيبسا، وبعده خلفاؤه، وأخيراً في أيامنا هذه، يوبا والد يوبا الذي توفّي منذ بعض الوقت. وقد دمّر الرومان بعد

ذلك عاصمته. وبعد 600 مرحلة من سيغا تقع ثيون- ليمين[17] ثمّ أماكن أخرى لا أهمية لها. أمّا المناطق التي تقع في أعماق البلاد، فهي مناطق جبلية وصحراوية (تقع بينها في بعض الأحيان أماكن مسكونة يشغلهاالجيتوليون)[18]، وصولاً إلى السرتين، إلاّ أنّ الأماكن الساحلية هي عبارة عن سهول خصبة فيها كثير من المدن، والأنهار، والبحيرات.

10- وأنا لا أعرف إذا كان بوسيدونيوس على حقّ عندما يزعم أنّ «عدداً قليلاً فقط من الأنهار التي لا أهمية لها» يجري عبر ليبيا؛ فهذه الأنهار هي نفسها التي يشير أرتيميدور إلى أنها تقع بين لينكس وقرطاجا، ويصفها بالأنهار «الكبيرة والكثيرة العدد»[19]. ويسوق بوسيدونيوس نفسه سبب هذا، ففي الأجزاء الشمالية من ليبيا لا تهطل الأمطار، وهذا ما يزعمونه أيضاً بخصوص إثيوبيا؛ ولذلك ليس نادراً أن يتسبب الجفاف بانتشار الأمراض المعدية، فتمتلئ البحيرات بالوحل وينتشر الجراد. ويقول بعد ذلك، إنّ «الأجزاء الشرقية من ليبيا مشبعة بالرطوبة؛ لأنّ الشمس سرعان ما تعبرها لدى شروقها، بينما المناطق الغربية جافّة، لأنّ الشمس تنعطف هناك عائدة». فتدعى الأماكن جافّة أو رطبة تبعاً لوفرة المياه ونقصها، أو تبعاً لشدّة أشعة الشمس؛ لكنّ بوسيدونيوس لا يريد أن يتحدّث إلاّ عن تأثير أشعة الشمس؛ والكتّاب كلّهم يحدّدون تأثير هذه الأشعة تبعاً لدائرة العرض الشمالية أو الجنوبية. والحقيقة أنّ الجهة الشرقية والجهة الغربية تتبدّلان بالنسبة للأماكن المسكونة تبعاً لكلّ منطقة مسكونة ولتبدّل دوائر الأفق، وفي ظلّ وجود أعداد لا عدّ لها من الأماكن المسكونة، يغدو التأكيد على أنّ المناطق الشرقية على وجه العموم رطبة، والمناطق الغربية على وجه العموم جافة أمراً متعذّراً. ولكن بما أنّ المقصود بهذا التأكيد، هو العالم المسكون كلّه، ومناطقه الطرفية كالهند وإيبيريا، فقد يكون بوسيدونيوس قصد بقوله هذا إلى مثل هذا المغزى. فما هي حظوظ هذا التعليل من الصحّة؟ فهل «الارتداد»، أيّ ارتداد كان، ممكن في حركة الشمس الدائمة؟ أضف إلى هذا أنّ سرعة عبور الشمس هي واحدة في كلّ مكان. وعدّاك عن هذا كلّه من ذا الذي سيعارض ما هو مرئيّ بالعين المجرّدة ويصف إيبيريا أوماوروسيا (الطرفين الغربيين) بأكثر الأماكن جفافاً في العالم؛ فالمناخ في هذين الإقليمين معتدل، كما هو معروف، بل وأمطارهما غزيرة. ولكن إذا فهمنا «ارتداد» الشمس بمعنى أنها هنا في أقصى أطراف المعمورة تقع فوق الأرض، فإن السؤال الذي يطرح نفسه، هو ما علاقة هذا بالجفاف؟ فليس هنا فقط، إنما في أجزاء

المعمورة الأخرى كلّها التي تقع على دائرة العرض عينها مع مرور حدّ زمني واحد هو الليل، تعود الشمس من جديد لتسخّن الأرض[20].

11- ويقع هنا[21] في مكان ما ينبوع إسفلت، ومناجم للنحاس. ويذكرون أيضاً حشوداً كبيرة من العقارب المجنّحة والتي ليس لها أجنحة، وهي تتميّز بحجمها [الكبير]، ولها 7 فقرات[22]؛ كما يتحدّثون عن رتيلاء هذا المكان العظيمة الحجم؛ والعظاءات التي يبلغ طول واحدتها ذراعين. ويروى أنّ الشطر الجبلي من البلاد فيه ليخنيت[23] وحجارة تدعى بالحجارة القرطاجية[24]؛ وفي السهول كميات كبيرة من الصدف المحاري ذي الدرفين، وهذا ما ذكرته سابقاً لدى وصفي لآمون[25]. وتنمو هناك شجرة تدعى ميليلوت[26]، يستخرجون منها النبيذ. وعند بعض القبائل المحلّية تعطي الأرض محصولين، محصول يجنونه في الصيف، ومحصول يجنونه في الربيع؛ ويبلغ طول ساق النبات هنا خمس أذرع، وثخانته ثخانة الخنصر، ويعطي ثمراً يعادل ضعفه 240 مرّة. وفي الربيع لا يبذرون، إنما يجرحون سطح الأرض الزراعية بحزم من الباليور[27] ويكتفون [بالبذور] التي تتساقط من السنابل في أثناء الحصاد؛ لأنّ هذا يعطي محصولاً صيفياً كاملاً. وبسبب وجود أعداد كبيرة من الحيوانات المؤذية، تراهم يعملون وهم ينتعلون الجِزم، ويغطّون باقي أجزاء الجسد بالجلود. وعندما يستلقون للنوم يدهنون قوائم أسرتهم بالثوم خوفاً من العقارب، ويطوّقونها بحزم من الباليور.

12- وكانت تقع على هذا الساحل مدينة تدعى إيول أعاد بناءها يوبا بن بطليموس، وغيّر اسمها إلى قيصرية؛ وتوجد هناك ميناء تقع أمامها جزيرة صغيرة. وتقع بين القيصرية وتريتوس ميناء كبيرة تدعى سلدا؛ وتشكّل هذه الميناء الحدّ الفاصل بين يوبا والرومان. فقد كانت البلاد تقسم بطريقة مختلفة لأنّ القبائل التي كانت تسكنها كثيرة، وقد تعامل الرومان معها بطرق اختلفت بحسب الزمن: تارة «كأصدقاء» وتارة كأعداء؛ ولذلك كانوا ينتزعون أجزاء من الأرض من بعضها أحياناً، أو يضيفون أجزاء منها إلى أراضي بعضها الآخر أحياناً أخرى، ولم يفعل الرومان ذلك بوسيلة واحدة. وعلى وجه العموم كانت البلاد الواقعة قرب ماوروسيا أكثر غنى وقوّة، بينما تلك القريبة من قرطاجا والماسيليين أكثر ازدهاراً، وأفضل استثماراً، مع أنها كانت من قبل تعاني من حروب القرطاجيين، وبعد ذلك من حرب يوغورتا. فهذا الأخير حاصر أداربال صديق الرومان، في إيتيكا وأخذه أسيراً ثمّ قتله،

ومن ثمّ أضنى ليبيا كلّها بحربه. واشتعلت بعد ذلك الحروب واحدة إثر الأخرى، وآخر هذه الحروب تلك التي دارت بين قيصر الإلهي وسيبيون؛ وفي هذه الحرب هلك يوبا نفسه. ومع إبادة القادة العسكريين، دمّرت المدن أيضاً، خاصة مدن تيسياونت، وفاغا، وفالا، وكابسا التي كانت تخزن فيها كنوز يوغورتا، إضافة إلى مدينة زاما وزينخا، أي تلك المدن التي حقّق قيصر الإلهي قربها نصره على سيبيون، فقد هزمه عند روسبين أوّلاً، ثمّ عند أوزيتا[28]، وبعد ذلك عند فابس قرب البحيرة المجاورة، وعند المدن الأخرى أيضاً. وغير بعيد من هنا تقع المدينتان الحرّتان زيلاّ وآخولا. واستولى قيصر عنوة على جزيرة كيركينا ومدينة ثينا الساحلية. وقد اندثرت واحدة من هذه المدن اندثاراً تاماً، أمّا الأخرى فقد بقيت شبه مدمّرة. وأحرق فرسان سيبيون مدينة فارّا.

13- وبعد تريتوس تمتدّ بلاد الماسيليين ومنطقة القرطاجيين التي تشبهها. وتقع كيرتا في وسط البلاد؛ وهي عاصمة ماساناسّا وخلفائه؛ وتعدّ هذه المدينة محصّنة تحصيناً قوياً، ومجهّزة أفضل تجهيز من النواحي كلّها، خاصة في عهد ميكيبسا الذي أسكن فيها حتّى الإغريق، وضاعفها حتّى بات بإمكانه أن يجنّد 10.000 فارس وضعفي العدد من المقاتلين المشاة. وعلى هذا النحو لا تقع هنا كيرتا فقط، إنّما هيبونان أيضاً: واحدة قرب إيتيكا، والأخرى على الطريق نحو تريتوس؛ وكانت المدينتان مقرّين ملكيين. ومن حيث الحجم والأهمّية تعدّ إيتيكا المدينة الثانية بعد قرطاجا. فبعد دمار قرطاجا غدت هذه المدينة بمثابة العاصمة لدى الرومان، ونقطة استناد لتحركاتهم في ليبيا. وتقع هذه المدينة في الخليج القرطاجي نفسه عند واحدة من الرؤوس البحرية التي تشكّل هذا الخليج؛ وتدعى إحدى هذه الرؤوس، وهي الرأس الواقعة قرب إيتيكا، تدعى رأس أبوللونيوس، والأخرى رأس هرمييوس؛ وتقع المدينتان قبالة بعضهما وجهاً لوجه. ويجري قرب إيتيكا نهر باغرادا. ومن تريتوس إلى قرطاجا 2500 مرحلة؛ بيد أنه ليس ثمّة توافق حول هذه المسافة وكذلك حول المسافة من هنا إلى السرتين.

14- وتقع قرطاجا على ما يشبه الجزيرة، ويبلغ امتداد دائرة سورها 360 مرحلة؛ وتبلغ دائرة البرزخ نفسه الذي يمتدّ من البحر إلى البحر 60 مرحلة؛ وكانت لدى القرطاجيين هناك مرابط للفيلة، وهي مكان رحب جدّاً. وفي وسط المدينة كان يقع الأكروبوليس الذي دعوه بيرسا، وهذا عبارة عن مرتفع شديد الانحدار إلى حدّ ما،

يسـكنه النـاس مـن مختلـف جهاتـه؛ وعلـى قمتـه كـان يقـوم معبـد أسـكليبوس الـذي أحرقتـه وأحرقـت نفسـها معـه زوجـة هسـدروبعل بعـد سـقوط المدينـة. وتقـع عنـد سـفح الأكروبوليس مـراس وكفـون، وهـذا الأخير عبارة عـن جزيـرة دائريـة تحيط بها قنـاة انتشرت على امتدادها ترسانات لبناء السفن وإصلاحها.

15- وكانت ديدونا هي التي بنت هذه المدينة وجاءتها بالسكّان من صور. وقد كانت هـذه المستعمرة ومثلها المستعمرات الأخرى التي وصلت حتّى إيبيريا على هـذا الجانب من الأعمدة وذاك، نشاطاً فينيقياً موفقاً إلى درجة أنها لا تـزال حتّى يومنـا هـذا تشغل أفضـل شـطر بـرّي مـن أوروبا والجـزر المجـاورة، بـل وأخضـعت لسـلطانها ليبيـا كلّهـا، فهنـاك يستطيع العيش أيضـاً غير البـدو الرحّل. وبفضـل هـذا الجبروت نجـح القرطاجيون في جعل مدينتهم منافساً خطيراً لرومـا، وليس هـذا وحسـب، إنمـا خاضـوا ضدّها ثلاث حروب كبرى. وربّما يكون جبروتهم هـذا قـد تجلّى بأسـطع صوره في الحـرب الأخيرة التي هزمـوا فيهـا أمـام يميليـان سيبيون ودمّرت فيهـا مدينتهم. فعندما بدؤوا هذه الحرب كانوا يملكون في ليبيا ثلاثمئة مدينة، وكـان عـدد سكّان مـدنهم عندئذٍ 700.000 نسمة. ولمّا أرغمهم الحصار على الاستسلام لتفادي مواصلة الحـرب، سلّموا 200.000 وحدة كاملة مـن السـلاح، و3000 جهاز منجنيق؛ ولمّا قـرروا اسـتئناف الحـرب، هبّـوا مباشـرة لصـناعة السـلاح، فكـانوا يصـنعون في كـلّ يـوم 140 ترسـاً طويلاً، و300 سيف، و500 رمح، و1000 قذيفة منجنيق؛ وكانت الخادمات هن اللواتي يوفّرن الشعر لصناعة حبال المنجنيق. ومع أن شـروط اتفاق السـلام الـذي وقّعوه منـذ 50 عاماً بعد الحرب الثانية، قضت بألاّ يملكوا سوى 12 سفينة، إلاّ أنهـم علـى الـرغم مـن ذلك، نجحوا في خلال شهرين ببناء 120 سفينة ذات سطح (مع أنهم أُرغموا علـى الفـرار إلى البيرسا)؛ وبما أن ثغر الكوفون كـان تحت سيطرة الأعـداء، فقـد حفـروا لـه ثغـراً آخر، وخرج أسطولهم إلى البحر على حين غرّة من أعدائهم. لقد كـان لـديهم احتيـاطي قديم من الخشب الصالح لبناء السفن، وأعداد كبيرة من البناة النجارين الذين كـانوا يعيشـون علـى نفقـة الدولـة؛ ومـع ذلـك سـقطت قرطاجـا ودمّـرت. وفيمـا يخـصّ منطقـة قرطاجـا، فقـد حـوّل الرومـان الجـزء الخاضـع منهـا لسـيطرة القرطـاجيين إلى مقاطعـة، وأعطـوا الجـزء الآخـر لماسانـاسـا وخلفائـه ابتـداء مـن ميكيبسـا. فقـد كـان ماسـاناسـا يحظى بمكانة خاصة لدى الرومـان، بفضـل شـجاعته وبسـالته وموقفـه الـودّي تجـاههم. والحقيقة أن هذا الرجل أهّل البدو لنمط العيش المدني، وجعـل منهم فلاّحـين، وعلّمهـم

شؤون الحرب ومعها شنّ الغزوات. فقد وقع لهؤلاء الناس شيء ما غريب: مع أنهم كانوا يعيشون في بلاد معطاءة، ليست غنية إلاّ بالوحوش البرية، إلاّ أنهم لم يتخذوا أيّ إجراء للتخلّص منها كي يتمكنوا من حراثة الأرض وزراعتها بأمان، بل كانوا يهاجمون بعضهم بعضاً، وتركوا الأرض للوحوش البرية. وعلى هذا النحو لم يبق لهم إلاّ أن يعيشوا حياة التنقّل والترحال مثلهم مثل القبائل التي أدّى بها الفقر والشحّ، وجدب التربة، أو المناخ السيّئ إلى هذا النمط من العيش؛ ولذلك أطلق على الماسيليين اسم خاص، إذ يدعونهم «نوماديين»[29]. وينبغي أن تكون مثل هذه القبائل بالضرورة قبائل قانعة بحياتها: يقتات أفرادها أساساً على الجذور واللحوم، ويستهلكون اللبن والجبن في غذائهم. وهكذا بقيت قرطاجا ركاماً لزمن طويل (ما يقارب الزمن الذي بقيته كورينثوس تحت الركام). إلاّ أنّ قيصر الإلهي أعاد بناءها تقريباً في الوقت الذي أعاد فيه بناء كورينثوس؛ لقد أرسل قيصر إلى هناك مستعمرين رومان آثروا أن يعيشوا في قرطاجا، كما أرسل إلى هناك بعض الجنود أيضاً. وتزدهر قرطاجا في وقتنا الراهن، مثلها في هذا مثل أيّ مدينة في ليبيا.

16- وتقع قبالة الجزء الأوسط من خليج قرطاجا، جزيرة كورسورا[30]. وعلى الجانب الآخر من المضيق. قبالة هذه الأماكن، تقع صقليا، وعلى وجه التحديد جزؤها القريب من ليليبيه، على مسافة تقارب 15.000 مرحلة، لأنهم يقولون، إنّها المسافة نفسها بين ليليبيه وقرطاجا. ولا تبتعد عن كورسورا وصقليا كثيراً جزيرة إيغيمور والجزر الأخرى. فالمسافة بين قرطاجا وأقرب نقطة على الشاطئ المقابل لها[31]، تشكّل 60 مرحلة، والطريق من هناك إلى داخل البلاد 120 مرحلة حتّى نيفيريس المدينة المحصّنة المبنية على الصخر. وفي ذلك الخليج نفسه، حيث قرطاجا أيضاً، تقع مدينة تينيس، والينابيع الحارّة، ومقالع حجارة. وتأتي بعد ذلك رأس هيرميوس الصخرية البحرية، والمدينة التي تقع عليها، ثمّ نابولي؛ وبعدها رأس تافيتيدس البحرية وعليها هضبة تدعى أسبيس[32]؛ وكان أجاثوكليس التيران الصقلي قد عمّر هذه الهضبة بالسكّان بينما كان يشنّ حملته البحرية ضدّ القرطاجيين. ولكنّ هذه المدن دمّرها الرومان مع تدمير قرطاجا. وعلى بعد 400 مرحلة من تافيتيدس تقع جزيرة كوسّور[33]، قبالة نهر سيلينونت الصقلي والمدينة التي تحمل الاسم نفسه، والتي يبلغ امتداد محيطها 150 مرحلة؛ وتبعد المدينة عن صقليا 600 مرحلة؛ وعلى بعد 500 مرحلة من كوسور تقع جزيرة ميليتا. ثمّ تأتي مدينة أدريميس التي كانت فيها ترسانة لبناء

السفن وإصلاحها؛ ثمّ تأتي بعد ذلك مجموعة جزر صغيرة تدعى تارخيس تقع واحدتها قرب الأخرى مباشرة؛ وبعدها تأتي مدينة فابس تليها لوبادوسا، وهي جزيرة في عرض البحر؛ ثمّ تلي رأس آمون باليثون البحرية التي يقع عندها مكان لمراقبة حركة أسماك التنّ(34)؛ وبعد ذلك مدينة ثينا الواقعة عند أوّل سرت الصغير. وفي المدى الفاصل بين هذه الأماكن يقع كثير من المدن الصغيرة التي لا تستحقّ الذكر. وعند بداية سرت تقع جزيرة طويلة بعض الشيء هي جزيرة كيركينا، وهي جزيرة كبيرة فيها مدينة تحمل الاسم عينه؛ كما تقع هنا جزيرة أخرى أصغر من كيركينا، تدعى كيركينيتيدس.

17- وتجاور هذه الجزر سرت الصغير الذي يدعى أيضاً سرت اللوتوفاغيين. ويبلغ امتداد محيط هذا الخليج 1600 مرحلة، وعرض ثغره 600 مرحلة. وعلى كلّ رأس من الرأسين البحريتين اللتين تشكلان ثغر الخليج، تقع جزر قريبة من البرّ، وهي على وجه التحديد جزيرة كيركينا المذكورة، وجزيرة مينينغا المتساويتان بالحجم. ويعدّون مينينغا أرض اللوتوفاغيين التي ذكرها هوميروس: يعرضون عليك هناك بعض العلامات- مذبح أوديسيوس وثمرة اللوتوس نفسها؛ وينمو على هذه الجزيرة فعلاً، كثير من الأشجار التي تدعى لوتوس، ولثمارها طعم لذيذ حقّاً. وثمّة على الجزيرة عدد من المدن الصغيرة، تحمل واحدة منها اسم الجزيرة. وفي سرت نفسه عدد من المدن الصغيرة. وتقع في عمق الخليج ميناء كبيرة جدّاً، ونهر يصبّ في الخليج. وتصل فاعلية المدّ والجزر إلى هذه النقطة، فيخفّ السكّان إلى هنا في وقت حصولهما لكي يصيدوا الأسماك.

18- وبعد سرت تقع بحيرة زوخيوس التي يبلغ محيطها 400 مرحلة، مدخلها ضيّق؛ تقوم عليه مدينة تحمل اسمها نفسه، وفي المدينة ورش للصباغ، ومختلف أنواع ورش تمليح الأسماك؛ ثمّ تليها بحيرة أخرى أصغر منها بكثير؛ وبعدها مدينة أبروتون وبعض المدن الأخرى؛ وتقع بعدها مباشرة مدينة نابولي التي تدعى ليبتوس أيضاً؛ وتبلغ مسافة المعبر من هنا إلى اللوكريين الإيبيزيفيريين 3600 مرحلة. ويأتي بعد ذلك نهر يليه ما يشبه المزلقان الفاصل الذي بناه القرطاجيون الذين كانوا قد بنوا جسوراً عبر بعض المهاوي التي تمتدّ إلى داخل البلاد. وثمّة بعض الأماكن هنا خالية من الموانئ والمراسي، بينما باقي الشاطئ عليه ما يكفي منها. ونلقى بعد ذلك رأساً بحرية عالية تكسوها غابة، وهذه الرأس هي التي تشكّل بداية سرت الكبير، وتدعى كيثالا. والمسافة من قرطاجا حتّى هذه الرأس أكثر من 5000 مرحلة بقليل.

19- وفوق الساحل، من قرطاجا حتّى بلاد الماسيسيليين، تمتدّ أرض الليبيين -الفينيقيين التي تصل حدودها حتّى منطقة الجيتوليين الجبلية التي هي ليبيا نفسها. وإلى الأعلى من الجيتوليين تمتدّ بلاد الجرمنت على موازاة أرضهم التي يأتي القرطاجيون منها بالحجارة. وبحسب الروايات أن الجرمنت يبعدون مسافة تسعة أو عشرة أيام عن الإثيوبيين الذين يعيشون على شواطئ المحيط، ويبعدون عن آمون خمسة عشر يوماً. ولا ينبسط بين الجيتوليين وساحلنا كثير من السهول وحسب، بل يرتفع كثير من الجبال أيضاً، كما يقع كثير من البحيرات والأنهار الكبيرة؛ ويختفي بعض الأنهار تحت الأرض ليغيب تماماً عن الرؤية. وتعيش الناس هنا عيشة بسيطة، وترتدى ملابس بسيطة جدّاً، ويتزوّج الرجال بكثير من الزوجات وينجبون كثيراً من الأولاد؛ وفيما تبقّى يشبهون العرب الرحّل في كلّ شيء؛ وأعناق الخيل والثيران هنا أطول منها في البلدان الأخرى. ويربيّ الملوك الخيل هنا بشغف كبير، ويبلغ عدد المهور منها سنوياً ما يقارب 100.000 رأس. ويطعمون الغنم لبناً ولحماً، خاصة في المناطق القريبة من الإثيوبيين. وهذا ما يمكنني قوله عن المناطق الداخلية من البلاد.

20- يشغل محيط السرت الكبير ما يقارب 3960 مرحلة، ويبلغ قطره حتّى المنخفض 1500 مرحلة، ومثلها تقريباً يبلغ عرض ثغره. والخطر في هذا السرت والسرت الصغير، هو أنّ فيهما كثيراً من الأماكن الضحلة، وفي وقت المدّ والجز يقع بعض البحارة في هذه الأماكن ويعلقون هناك، ومن النادر جدّاً أن تنجو السفن من ورطتها وتخرج من هناك. ولذلك يبحر البحارة عبر معابر بعيدة عن هذا المكان خوفاً من أن تدفعهم الريح على حين غرّة إلى الخليج. وعلى وجه العموم، ترغم المخاطرة الناس على كلّ شيء، خاصة على الإبحار الخطر على طول الساحل. وعلى الجانب اليميني لدى الدخول إلى السرت الكبير، بعد كيڤالا، تقع بحيرة يقارب طولها 300 مرحلة، وعرضها 70 مرحلة؛ وهي تصبّ في الخليج وفيها جزر صغيرة، وأمام ثغرها تقع محطة شراعية. ويقع خلف الجزيرة مكان يدعى أسبيس، وتقوم أفضل ميناء في السرتين. وبعد ذلك مباشرة يرتفع برج يوثرانس الذي كان يشكّل الحدّ الفاصل بين أملاك قرطاجا السابقة وأملاك قورينائية في عهد بطليموس؛ ويأتي بعد ذلك مكان يدعى خاراكس كان القرطاجيون يستخدمونه ميناء لهم؛ فإلى هنا كانوا يأتون بنبيذهم ليبادلوا به السلفيوم وعصيره اللذين كان يحملهما التجار إلى هنا سرّاً من قورينا. ويقع بعد ذلك مذبحا الأخوين فيلني، وبعدهما قلعة أوتومالا التي يعسكر فيها فوج، وتقع

في عمق الخليج كلّه. ودائرة العرض التي تمرّ عبر هذه الزاوية، تقع إلى الجنوب قليلاً من دائرة العرض التي تمرّ عبر الإسكندرية- على مسافة 1000 مرحلة - وأقلّ من 2000 مرحلة إلى الجنوب من دائرة العرض التي تمرّ عبر قرطاجا. وتتطابق دائرة العرض هذه مع دائرة العرض التي تمرّ عبر هيرونبوليس الواقعة في منخفض الخليج العربي من جهة، ودائرة العرض التي تمرّ عبر المناطق الداخلية للماسيسيليين والماوروسيين من جهة أخرى. والشطر المتبقي من الساحل من هنا حتّى مدينة برينيقي، يمتدّ طولاً مسافة 1500 مرحلة. ويقيم النسّامونيون - قبيلة ليبية - إلى الأعلى من الساحل، وتمتدّ منطقتهم حتّى مذبحيّ الأخوين فيليني. ولا يوجد في هذه الحيّز سوى قليل من المراسي، أمّا المجّمعات المائية فهي نادرة. وتقع هنا رأس بحرية تدعى بسيدوبنيادس تقع عليها برينيقي عند بحيرة ما تدعى تريتونيدس تشتهر فيها على وجه الخصوص جزيرة صغيرة فيها حرم لأفروديت. وثمّة في هذا المكان بحيرة[35] الهسبيريدس التي يصبّ فيها نهر يدعى لاثون. وبعد ذلك في العمق[36]، بعد برينيقي تقع رأس بحرية صغيرة تدعى بورياس تشكّل مع كيثالا ثغر السرت. وتقع برينيقي قبالة أطراف البيلوبونيز مقابل ما يدعى إيختيس، وكذلك قبالة زكينثوس على مسافة معبر امتداده 3600 مرحلة. ومن هذه المدينة طاف مارك كاتون السرت برّاً في 30 يوماً ومعه جيش قوامه أكثر من 10.000 مقاتل[37]، قسمّه إلى وحدات بما يتلاءم ومصادر المياه؛ لقد سار كاتون راجلاً عبر الرمال العميقة والحرّ الشديد. وبعد برينيقي تقع مدينة تاهيرا التي تدعى أرسينويا أيضاً، تليها برقة التي تدعى الآن بطليموسيا، ثمّ رأس ثيكونت البحرية، ومع أنها منخفضة إلاّ أنها تبرز عميقاً نحو الشمال مقارنة بباقي الساحل الليبي؛ وتقع هذه الرأس قبالة تينار في لاكونيا على مسافة معبر يمتدّ 2800 مرحلة؛ كما تقع هنا مدينة تحمل اسم الرأس نفسه. وغير بعيد عن ثيكونت تقع محطة شراعية للقورينيين، وعلى ما يقارب 170 مرحلة من هذه المدينة تقع مدينة أبوللونيا، وعلى مسافة 1000 مرحلة عن برينيقي، و80 مرحلة عن قورينا؛ وهذه الأخيرة مدينة كبيرة تقع في سهل على شكل شبه منحرف، كما بدا لي عندما رأيته من البحر.

21- لقد أسّس قورينا مستعمرون من جزيرة ثيرا اللاكونية التي كانت تدعى قديماً كالليستا، كما يقول كاليماخ:

في الماضي كانت كالليستا، وأعطيت فيما بعد اسم ثيرا،

مسقط رأس أمّي، البلاد الشهيرة بالخيل.

وتقع محطّة القورينيين الشراعية قبالة الطرف الغربي من كريت -كريوميتوبون- على مسافة 2000 مرحلة منه؛ ويبدأ الإبحار مع لوكونوت[38]. ويروى أن قورينا تأسّست على يدي باتوس[39]، الذي دعاه كاليماخ جدّه. وقد نمت مدينة قورينا واتسعت بفضل التميّز الاستثنائي لمنطقتها، فهذه المنطقة تنتج خيولاً ممتازة، وتربتها شديدة الخصوبة وكثيرة الغلال؛ وكان يسكنها كثير من الناس الذين اشتهروا بقدرتهم على حماية حريتهم كما يجب، وبجبروتهم في مقاومة الأعداء البرابرة الذين كانوا يسكنون المناطق الواقعة إلى الأعلى. وفي الأزمنة القديمة كانت قورينا مدينة مستقلّة، ثمّ هاجمها المقدونيون الذين استولوا على مصر، وقد قاد الهجوم عليها ثيبرون ومعاونوه الذين قتلوا غاربال. وكان القورينيون قد عاشوا بعض الوقت تحت حكم الملوك، ثمّ انتقلت السلطة عليهم إلى الرومان؛ وتشكّل المدينة الآن مع كريت ولاية رومانية واحدة. وتقوم في ضواحي مدينة قورينا مدن صغيرة تابعة لها، هي أبوللونيا، وبرقة، وتاهيرا، وبرينيقي؛ وثمّة في المنطقة مدن صغيرة أخرى تقع على مقربة.

22- وتجاور قورينائية بلاد تنتج السلفيوم والعصير القوريني الذي يستخرج منه بعد أن يُعصر. ويكاد يكون هذا النبات قد انقرض، بعد أن اجتاح البرابرة البلاد بسبب عداوة ما واجتثّوا جذوره. وكان هؤلاء من البدو الرحّل. ومن أشهر شخصيات قورينا، أريستيبوس الذي كان ينتمي إلى مدرسة سقراط، وقد أنشأ هذا مدرسة قورينا الفلسفية؛ تليه ابنته أريتا التي ورثت مدرسته؛ وورثها عنها ابنها أريستيبوس الذي حمل لقب ميتروديداكت[40]؛ ثمّ تزعّم المدرسة أنّيكيريستوس الذي يُظنّ أنه صحّح تعاليم المدرسة، وأدخل بدلاً منها التعاليم «الأنّيكيريستية». ومن القورينيين أيضاً كاليماخ وإيراتوسفين اللذان حظيا بتكريم كبير عند ملوك مصر؛ الأوّل بصفته شاعراً وعالماً يشتغل في ميدان الأدب، وتميّز الثاني في هذا الميدان نفسه وفي ميدان الفلسفة والرياضيات كما لم يتميّز فيها أحد آخر. ومن قورينا أيضاً كارينادس[41] الذي يجمع الكتّاب على أنه كان أفضل فلاسفة الأكاديميا، ومنها أيضاً أبوللونيوس كرونوس معلّم ديودوروس دياليكتيكوس؛ وقد نال هذا الأخير بدوره لقب «كرونوس»، لأنّ بعضهم أطلق لقب المعلّم على تلميذه. وبعد أبوللونيا يمتدّ ما تبقّى من الساحل القوريني حتّى كاتاباسم مسافة 2000 مرحلة؛ وليس الإبحار على طول هذا الساحل سهلاً البتّة، لأنّ الموانئ هنا قليلة وكذلك المحطات الشراعية، والقرى، والأحواض المائية. ومن المواقع على طول هذا الساحل، ناوستاسم وزيفيروس بمحطته

الشراعية، ثمّ زيفيروس آخر، ورأس بحرية تدعى كيدونيس عليها ميناء. وتقع هذه الرأس قبالة كيكليس في كريت، على مسافة 1500 مرحلة مع الريح الجنوبية الغربية. ويأتي بعد ذلك حرم ما لهرقل، وفوقه قرية تدعى باليور؛ وبعدها ميناء منيلايوس وأردانيس، وهذه الأخير رأس بحرية منخفضة عليها محطة شراعية؛ وتأتي بعد ذلك ميناء كبيرة تقع قبالتها كيرسونيس في كريت؛ وتبلغ المسافة بين هذين الموقعين حوالي 2000 مرحلة[42]. وفي الجهة المقابلة، على موازاة هذا الساحل تقريباً، تمتدّ جزيرة كريت الطويلة الضيّقة كلّها. وبعد الميناء الكبيرة تقع ميناء بلينوس، وفوقها تيترابيرغيبيا[43]؛ ويدعى هذا المكان كاتاباسم. وإلى هنا تمتدّ قورينائية. وأنا كنت قد تحدّثت لدى وصفي لمصر، عمّا تبقّى من هذا الساحل حتّى باريتونيوس، ومن هنا حتّى الإسكندرية.

23- يسكن الليبيون بلاداً قاحلة جافّة تقع في عمق القارّة فوق سرت وقورينائية؛ أوّلاً، النسّامونيون، وبعدهم البسيليون وبعض الجيتوليين، ثمّ الجرمنت؛ وأبعد إلى الشرق يسكن المارماريديون الذين يجاورون قورينائية على امتداد شاسع وتصل حدودهم حتّى آمون. وإذا ما انطلقت من منخفض السرت الكبير، عند أوتومالا تقريباً، نحو مطلع الشمس شتاء، فإنك تصل أوجيلا بعد 4 أيام. ويشبه هذا المكان آمون: لقد نبت هنا النخيل، وثمّة في المكان وفرة من المياه؛ ويمتدّ المكان فوق قورينائية نحو الجنوب مسافة 100 مرحلة تكسوها الأشجار، و100 مرحلة أخرى من الأراضي الزراعية فقط، مع أن الجفاف[44] لا يسمح بإنتاج الرزّ. وتقع فوق هذا المكان منطقة تنتج السلفيوم؛ ثمّ تلي ذلك منطقة مسكونة فأرض الجرمنت. والمنطقة التي تنتج السلفيوم منطقة ضيّقة وطويلة، وإلى حدّ كبير جافّة؛ فإذا اتّجهنا شرقاً، يبلغ طولها قرابة 1000 مرحلة، وعرضها 300 مرحلة أو أكثر بقليل، وينسحب هذا في أقلّ تقدير على الشطر المعروف منها. فنحن نستطيع أن نفترض أنّ كلّ البلاد التي تمتدّ امتداداً متواصلاً على دائرة عرض واحدة، متشابهة من حيث المناخ وعالم النبات؛ ولكن بما أنّ بعض الصحارى تتوزّع هنا، لذلك فإننا لا نعرف هذا المكان كلّه. وعلى النحو عينه نحن نجهل الأماكن التي تقع فوق آمون والواحات وصولاً إلى إثيوبيا؛ ولا نستطيع أن نعيّن حدود إثيوبيا ولا حدود ليبيا، بل ولا حدود المنطقة المجاورة لمصر، وبدرجة أقل حدود ما يمتدّ على ساحل المحيط.

24- لقد كانت تلك هي حال أجزاء العالم الذي نسكنه. ولكنّ بما أنّ

الرومان يملكون أفضل أجزائه وأكثرها شهرة، وتفوّقوا في ذلك على كلّ من سبقهم من الحكّام الذين نعرفهم، لذلك ينبغي أن نعرض لو لمحة موجزة عن أمراء إمبراطوريتهم. وأنا كنت ذكرت من قبل[45]، إنهم بعد أن خرجوا من مدينة واحدة، هي روما، استولوا على إيطاليا كلّها بالحرب، وبإدارة دولتهم إدارة حكيمة؛ وشرحت كيف استخدموا مهاراتهم وحذقهم نفسه وضموا إلى دولتهم، إضافة إلى إيطاليا، كلّ الأراضي الأخرى المجاورة. فمن القارّات الثلاث يمتلكون ما يقارب أوروبا كلها، ما عدا الأراضي الواقعة على الجانب الآخر إيستر ومناطق ساحل المحيط التي تقع بين الراين وتانايس. ويخضع لهم كلّ الساحل الليبي من بحرنا؛ أمّا الشطر الآخر من ليبيا، فهو غير مسكون البتّة، أو تسكنه أعداد من قبائل الرحّل. وعلى النحو نفسه يخضع لهم الساحل الآسيوي من بحرنا كلّه، إذا استثنينا مناطق الآخيين، والزيغيين، والجينويين، حيث يعيش السكّان هنا في الأخاديد والمناطق القاحلة على النهب، ويتنقلون دائماً من مكان لآخر. أمّا المناطق الداخلية من القارّة، والأراضي الواقعة في أعماقها، فإن الرومان يمتلكون شطراً منها، والشطر الآخر يمتلكه البارثيون والبرابرة الذين يعيشون إلى الأعلى منهم؛ وفي الشرق والشمال يعيش الهنود، والباكتريون، والسكيثيون، ثمّ العرب والإثيوبيون. ولكنّ شطراً ما من هذه الأملاك ينتقل دائماً إلى الرومان. ومن كلّ الأراضي الخاضعة لسلطة الرومان، يدير الملوك شؤون بعضها، وبعضها الآخر يملكه الرومان أنفسهم تحت مسمّى ولايات ويرسلون إلى هناك ولاة وجباة إتاوات. وثمّة هنا بعض المدن الحرّة: بعضها كان منذ البداية «صديقاً» للرومان، وبعضها الآخر منحه الرومان أنفسهم الحرية تعبيراً عن احترامهم لها. ويتبع للرومان هنا بعض زعماء القبائل والكهنة. ويعيش هؤلاء ويحكمون وفق قوانين أبوية موروثة.

25- وكانت الولايات تقسم في أوقات مختلفة بطرائق مختلفة؛ والتقسيم السائد الآن هو التقسيم الذي وضعه أغسطس قيصر. فبعد أن منحه الوطن المكانة الأولى في إدارة شؤون الدولة، والسلطة مدى الحياة في تقرير مسائل الحرب والسلام، قسّم أراضي الإمبراطورية كلّها إلى قسمين: قسم وضعه تحت سلطته الشخصية، والقسم الآخر تحت إدارة الشعب. فقد أبقى لنفسه المناطق التي تعدّ القوّة العسكرية ضرورية لحمايتها (لقد كانت هذه المناطق هي المناطق البربرية التي تجاور قبائل لم تخضعها روما لسلطتها بعد، أو أراضي قاحلة غير صالحة للعمل الزراعي؛ ولذلك كان

سكّان هذه المناطق الذين يعانون نقصاً في كلّ شيء، ويملكون كثيراً من الحصون، يحاولون دائماً التخلّص من التبعية وينزعون نحو العصيان)؛ أمّا الشعب فقد أعطاه أغسطس قيصر ما تبقى من الأراضي، لأنّ هذه كانت بلداناً مسالمة تسهل إدارتها من غير اللجوء إلى القوّة العسكرية. ثمّ قسم كلاً من الجزأين إلى عدد من الولايات يدعى بعضها «ولايات قيصر»، وتدعى الأخرى «ولايات الشعب». وكان قيصر يرسل إلى «ولايات قيصر» وكلاء ماليين، ومبعوثين، وهو يقسم الأراضي في غضون ذلك بطرائق تختلف من وقت لآخر، ويدير شؤونها بما يتوافق والظروف، بينما كان الشعب نفسه، هو الذي يرسل إلى «ولايات الشعب» قضاة، أو قناصل. وعلى وجه العموم كانت تقسيمات هذه الولايات تخضع بدورها لمختلف التغيّرات بما يتوافق والمنفعة منها. وفي أوّل الأمر أنشأ قيصر في أقلّ تقدير، ولايتين قنصليتين: ليبيا، لأنها كانت خاضعة للرومان (ما عدا أجزائها التي كانت تحت سلطة يوبا، والآن تحت سلطة ابنه بطليموس)، والجزء الآسيوي الواقع على هذا الجانب من هاليس وطوروس، ما عدا مناطق الغلاطين والقبائل الخاضعة لسلطة أمينتا، وكذلك بيثينيا وبروبونتيدا؛ ثانياً، 10 مقاطعات في أوروبا والجزر القريبة منها، على رأسها قضاة: أوّلاً، إيبيريا القصوى، التي تقع عند نهريّ بيتيس وأناس[46]؛ ثانياً، ناربونيتيدا في سلتيا؛ ثالثاً، سردينيا ومعها كيرن؛ رابعاً، صقليا؛ خامساً وسادساً في إيلليريا المنطقة الواقعة عند إيبير ومقدونيا؛ سابعاً، آخيا حتّى تساليا، وإيثوليا، وأكارنانيا وبعض القبائل الإيبيرية المجاورة لمقدونيا؛ ثامناً، كريت ومعها قورينائية؛ تاسعاً، قبرص؛ عاشراً، بيثينيا ومعها بروبونتيدا وبعض أجزاء البونتس. أمّا باقي المقاطعات فهي ملك لقيصر الذي يرسل إلى بعضها القناصل السابقين ممثلين له ومراقبين، ويرسل إلى بعضها الآخر القضاة السابقين، وإلى بعضها الثالث الفرسان. ويوجد دائماً في الأراضي التابعة لقيصر ملوك، وحكّام، وديكارخ. هكذا كانت عليه الحال وكذلك هي الآن.